UB LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الأميركية في بيروت

UNIVERSITY
LIBRARY

LIB. LIBRAR

892.78
M276n A
v.3

المنفلــوطي

النظــرات

الجزء الثالث

المنفلك

الجزء الثالث
النظرات ٣

89
892.77

البيــان

عرفت فيما مضى من الايام أديباً كان من أكبر أدباء هذا البلد المضطلعين باللغة وفنونها، الحافظين للكثير الممتع من منظومها ومنثورها، وكان لا يكتب كلمة فى صحيفة ولا ينشر فى النـاس كتاباً الا أعجم كتابتَه وأبهمها وتعمَّل فيها تعـمُّلاً يأخذ على القارئ عقلَه وفهمَه فلا يدرى أى سبيل يأخـذ بين مسالـكها وشعابها، وكنت أحسبها غريزة من غرائزه الغالبة عليه الآخذة من نفسِه مأخذَ الطبيعة الثابتة والملكة الراسخة فلا سبيل له الى التخلص منها والنزوع عنها حتى اطلعت لهُ عند بعض أصدقائهِ على كتاب صغير كان قد أرسله اليـه فى بعض الشؤون الخاصة به وكتَبَهُ بتلك اللغـة السهلة البسيطة التى يسمونها اللغة العادية، فأُعجبت بأسلوبه فى كتابه هـذا اعجاباً كثيراً ورأيت أنه أبلغ ما قرأْتُ له فى حياتى من كتب ورسـائل، وعلمت أن الرجل فصيـح بفطرته قادر على الابانة عن أغراضه ومراميه كأفضل ما يَقتدر مقتدرٌ على ذلك الا أنه يتكلف الركة والتعقيد فى كتابته

تكلفاً ويأخذ نفسهُ بهما أخذاً ، ولو أنه أرسل نفسه على سجيتها فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها كتابه هذا لكان من أعظم الكتاب شأناً وأكثرهم نفعاً وأرفعهم صوتاً في عالم الكتابة والادب ، ولكن هكذا قُدِّر له أن يقضي بنفسه على نفسه حتى مات رحمة الله عليه فماتت بموته نفثاته وآثاره

وقرأت منذ أيام لاحد الشعراء المتكلفين ديوان شعر فلم أفهم منهُ غير خطبتهِ النثرية ولم يعجبني فيهِ سواها ، وما أحسبها أفلتتْ من يده ولا جاءت على هذه الصورة من الجودة والحسن الا لانه أغفل العناية بها والتدقيق في وضعها فأرسلها عفو الخاطر إرسال من يعلم أنه انما يسئل عن الاجادة في الشعر لا في النثر ، وأن الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب أمام قوة الشاعر ، غيرَ عالم أنه كاتب من أفصح الكتاب وأبينهم ، ولو شاء لكان شاعراً من أقدر الشعراء وأفضلهم ، وأنه ما أحسن الا حيث ظن الاساءة ولا أساء الا حيث ظن الاحسان

ووالله ما أدري ما الذي يستفيده هؤلاء الكتاب والشعراء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن في أساليبهم الكتابية والشعرية وتكلف الاغراب والتعقيد فيها وهم يعلمون أنهم انما يكتبون للناس لا لأنفسهم وان الناس خصوصاً في مثل هذا العصر

عصر المدنية والعمل والحركة والنشاط أضنّ بأنفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه أو سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظهِ عن كوامن معانيه ، ولمَ لا يؤثِر أحدهم إن كان يكتب للمنفعة العامة أن يستكثر من سواد المنتفعين بعلمهِ وفضله أو للشهرة والذكر أن ينتشر له مايريد من ذلك بين جميع طبقات الامة عامتها وخاصتها جاهلها وعالمها ، وهل الشعر والكتابة الا أحاديث سائرة يحادث بها الشعراء والكتاب الناس ليفضوا اليهم بخواطر أفكارهم وسوانح آرائهم وخلجات نفوسهم ؟ وهل يَعنى المتحدثَ فى حديثه شئ سوى أن يعى عنه الناسُ مايقول وأن يجد بين يديه سامعاً مصغياً ومقبلاً محتفلاً ! وأى فرق بين أن يجلس الرجل الى جمع من أصدقائه ليقص عليهم بعض القصص أو يفضى اليهم ببعض الآراء فيتلطف فى تفهيمهم وايصال معانيهِ الى نفوسهم ويفتنّ فى اجتذاب ميولهم وعواطفهم وبين أن يجلس الى مكتبه ليبعث اليهم بهذه الاحاديث نفسها من طريق القلم ! ولمَ لا يعنيه فى الاخرى مايعنيه فى الاولى !

ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللغويون والحفاظ أيهم أكثر مادة فى اللغة وأوسع اطلاعاً على مفرداتها وتراكيبها وأقدر على

استظهار نوادرها وشواذها ومترادفاتها ومتوارداتها ، ولا متحفاً لصور الاساليب وأنواع التراكيب ، ولا مخزناً لحقائب المجازات والاستعارات، وعِياب الشواهد والامثال ، فتلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره انما يُعنَى بها المؤلفون والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم وواضعو كتب المترادفات ومصنفو تواريخ اللغة وتواريخ آدابها . أما البيان فهو تصوير المعنى القائم في النفس تصويراً صادقاً يمثلهُ في ذهن السامع كأنهُ يراهُ ويلمسهُ لا يزيد على ذلك شيئاً ، فان عجز الشاعر أو الكاتب مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه عن أن يصل بسامعه الى هذه الغاية ، فهو ان شئت أعلم العلماء أو أفضل الفضلاء أو أذكى الاذكياء ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب

ما أشبه الجمود اللغوى فى هذه البيئة العربية بالجمود الديني ، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر ، لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون ويقتطعون من هضبته الشماء صخوراً صماء يضعونها عثرة فى سبيل المدنية والحضارة حتى صيروه عبئاً ثقيلاً على كواهل الناس وأعناقهم فملّه الكثير منهم وبرموا به وأخذوا يطلبون لانفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه ، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون

المجتمع وأحواله لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الاخذ بأسباب دينهم والاخذ بأسباب دنياهم ، ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الالفاظ والصور يتشددون فى اللغة ويتحذلقون ، ويتشبثون بالاساليب القديمة والتراكيب الوحشية ويغالون فى محاكاتها واحتذائها ، ويأبون على الناس الا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا ، وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا ، ويحاسبون الكاتبين والناطقين حساباً شديداً على الكلمة الغريبة والمعنى المبتكر ويقيمون المناحات الشعواء على كل تشبيه لم تعرفه العرب وكل خيال لم يمر بأذهانهم حتى ملّهم الناس وملّوا اللغة معهم فتمردوا عليهم وخلعوا طاعتهم وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة فى جميع مواقفهم وعلائقهم فسقطوا فى اللغة العامية فى أحاديثهم وشبه العامية فى كتاباتهم ، وكادت تنقطع الصلة بين الامة ولغتها لولا أن تداركها الله برحمته فقيض لها هذا الفريق العامل المستنير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا كنهه فاتخذوا لانفسهم فى مناحيهم الشعرية والكتابية أسلوباً وسطاً معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها وبين تمثيل روح العصر وتصوير أسرار الحياة ، ولولاهم لبقيت اللغة فى أيدى الجامدين فماتت ، أو غلبت عليها العامية فاستحالت

*
* *

قال لى أحد المتكلفين فى معرض الاعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه فى هذا المنهج الخشن الوعر الذى ينهجه فى أُسلوبه : أنت تعلم أن الناس فى هذا البلد قد ألفوا من طريق خطأ الحس أن ينظروا بعين الاجلال والاعظام الى كل أسلوب شعري أو كتابى معقد غامض وان تفهت معانيه وهانت أغراضه ، وبعين الازدراء والاحتقار الى الاساليب السهلة البسيطة وان اشتملت على أشرف الاغراض وأبرع المعانى ، أى انهم لا يرون السهولة والانسجام حتى يتوهموا التفاهة والسفولة ولا يرون الركاكة والمعاظلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وسمو المعانى وشرفها ، وهى حالة طبيعية فى جميع النفوس البشرية أن تزدرىَ المبذول لها وتستسنىَ قِيمةَ الممنوع عنها ، وليس هذا شأنهم مع أدباء العصر الحاضر فحسب بل مع أدباء كل عصر وجيل ، فهم يسمون البحترى وأبا نواس والشريف الرضى وأمثالهم شعراء الالفاظ ، ويسمون المتنبي والمعرى وابن الرومى وأشباههم شعراء المعانى ، وليس بين الاولين والآخرين فرق فى جودة المعانى وشرفها الا أن الاولين أمطروها على الناس وبعثروها تحت أقدامهم فهانت عليهم ، وضن بها الآخرون ووعروا سبيلها فعظمت فى أعينهم وجلّت فى صدورهم ، قال ولقد عرضتُ السلعتين فى سوق الادب فكتبتُ أتفه المعانى

وأدونها فى أخشن الاساليب وأوعرها فنفقتْ فى تلك السوق نفاقاً عظيماً ، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها ، وكتبت أشرفَ المعانى وأبرعها فى ألطف الاساليب وأعذبها فما أبَهَ لها الا القليل من الناس وربما لم يأبه لها أحد ، فلم أرَ بداً من أن أنهج لنفسى فى الكتابة الخطةَ التى أعلم أنها أجدر بى وأجدى علىَّ

فعجبت لرأيه هذا عجباً شديداً وقلت له أمّا هذا الذى تذكره فانى لا أعرفه إلا لفئة قليلة من المشتغلين بالادب فاسدة الذوق لا يعبأ بها عابيء ، وليس هذا رأى جمهور المتأدبين بل ولا رأى العامة من أبناء هذه اللغة ، وهب أن الامر كما تقول فالادب ليس سلعة من السلع التجارية لاهمّ لصاحبها سوى أن يحتال لنفاقها فى سوقها ، انما الادب فن شريف يجب أن يُخاص له المتأدبون بأداء حقه والقيام على خدمته إخلاص المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم ، والادباء هم قادة الجماهير وزعماؤهم فلا يجمل بهم أن ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم فى جهالاتهم وفساد تصوراتهم ، وما زلت به حتى أذعن للرأى الذى رأيته له فحمدت الله على ذلك

*
* *

ليس من الرأى ولا من المعقول أن ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتاب الرسائل فى هذا العصر عصر الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذى لا يعرف أكثر من العامية الا قليلاً باللغة التى كان ينظم بها امرؤ القيس وطرفة والقطامى والخطفى ورؤبة والعجاج ويكتب بها الحجاج وزياد وعبد الملك بن مروان والجاحظ والمعرى فى عصور العربية الاولى ، فليس عصرنا كعصرهم ولا جمهورنا كجمهورهم ، وأحسب لو أنهم بعثوا اليوم من أجداثهم لما كان لهم بد من أن ينزلوا الى عالمنا الذى نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم أو يعودوا الى مراقدهم من حيث جاؤا

ليست الاساليب اللغوية ديناً يجب أن نتمسك به ونحرص عليه حرص النفس على الحياة ، انما هى أداة للفهم وطريق اليه لاتزيد على ذلك ولا تنقص شيئاً

يجب أن نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها ثم نكون أحراراً بعد ذلك فى التصور والتخيل واختيار الاسلوب الذى نريد

يجب أن يشف اللفظ عن المعنى شفوف الكأس الصافية عن الشراب حتى لايرى الرائى بين يديه سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر وحتى لايكون المادة اللفظية شأن عنده أكثر

مما يكون للمرآة من الشأن فى تمثيل الصور والخائل

يجب أن يتمثل المعنى فى ذهن المتكلم قبل أن يتمثل اللفظ حتى اذا حسن الاول أفاض على الثانى جماله ورونقه ، فاللفظ لايجمل حتى يجمل المعنى ، بل لامفهوم للفظ الجميل الا المعنى الجميل

لولم يكن للفصاحة قانون يرجع اليه من يريد معرفتها ومقياس تقاس عليه لوجب أن يكون قانونها العقلى أن يترك القائل فى نفس السامع الاثر الذى يريده ، فان عجز عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنى القائم فى نفسه ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أى حرفة من الحرف مهما صغر قدرها واتضع شأنها أعود بالنفع على الامة وأجدى عليها من حرفة القلم

لا يبك شاعر بعد اليوم ولا كاتب سقوط حظه فى الامة ولا يقض حياته ناعياً عليها جهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية اليه ، فالأمة قد ارتقت واستنارت وأصبحت طماحة متطلعة لايقنعها من قلم الشاعر أن يرن على صفحة القرطاس دون أن يطربها ويملك عواطفها ، ولا من قلم الكاتب أن يسود وجه الصحف دون أن ينير لها أذهانها ويغذى عقولها ومداركها ، فان كان لابد باكياً فليبك على نفسه وليتع عجزه وقصوره ، وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للامة ماتفهم

لاستطاعت الامة أن تفهم عنه مايقول)

اننى لا ألوم على الركاكة والفهاهة الاغبياء الذين اظلمت أذهانهم فاظلمت أقلامهم وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل ، ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ولم يمارسوا أدبها ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها ، ولا العاجزين الذين غلبتهم احدى اللغات الاجنبية على أمرهم قبل الالمام بشيء من أدب لغتهم فأصبحوا اذا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مميز واحد من مميزات العربية ولا خاصة من خواصها واذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربي الحروف أعجمي كل شيء بعد ذلك ، فهؤلاء جميعاً لا حول لنا فيهم ولا حيلة لانهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك ، انما ألوم المتأدبين القادرين الذين عرفوا اللغة واطلعوا على أدبها وفهموا سر فصاحتها وأنقم منهم عدولهم عن المحجة البيضاء فى البيان الى الجمجمة والغمغمة فيه وأنعى عليهم نقص القادرين على التمام

الناشىء الفقير (١)

لى ولد وحيد فى السابعة من عمره لا أستطيع على حبى إياه وافتتانى به أن أتركهُ من بعدى غنياً لأنى فقير، وما أنا بآسف على ذلك ولا مبتئس، لأنى أرجو بفضل الله وعونه، ورحمته واحسانه، أن أتركَ لهُ ثروة من العقل والأدب، هى عندى خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب

أحب أن ينشأ معتمداً على نفسه فى تحصيل رزقه، وتكوين حياته، لا على أى شىء آخر حتى على الثروة التى يتركها له أبوه، ومن نشأ هذا المنشأ، وألف أن لا يأكل إلاّ من الخبز الذى يصنعه بيده نشأ عزوفاً عيوفاً مترفّعاً لا يتطلع الى ما فى يد غيره، ولا يستعذب طعم الصدقة والاحسان

أحب أن ينشأ رجلاً، ولا سبيل الى الرجولة الاّ من ناحية العمل، وقلما يعمل العامل الاّ بسائق من الضرورة ودافع من

(١) كتب الكاتب هذه الرسالة جواباً على سؤال هذا نصه (أيهما أصلح للانسان أن يولد فقيراً أو غنيا)

الحاجة ، وفرقٌ بين الغنيّ الذى يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرهاً وفضولاً ، وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته ، وتقويم أود حياته

أحب أن يعيش فرداً من أفراد هذا المجتمع الهائل المعترك فى ميدان الحياة ، يصارع العيش ويغالبه ، ويزاحم العاملين بمنكبيه ، ويفكر ويتروّى ، ويجرب ويختبر ، ويقارن الأمور بأشباهها ونظائرها ، ويستنتج نتائج الأشياء من مقدماتها ، ويعثر مرة ، وينهض أخرى ، ويخطىء حيناً ويصيب أحياناً ، فمن لا يخطىء لا يصيب ، ومن لا يعثر لا ينهض ، حتى تستقيم لهُ شؤون حياته

ذلك خير لهُ من أن يجلس فى شرفة من شرف قصره مطلاً على العاملين والمجاهدين يمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد رواية تمثيلية فى أحد ملاعب التمثيل

أحب أن يمر بجميع الطبقات ويخالط جميع الناس ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينيه بؤس البؤساء ، وشقاءَ الأشقياء ، ويسمع بأذنه أنات المتألمين ، وزفرات المتوجعين ، ليشكر الله على نعمته إن كان خيراً منهم ، ويشاركهم فى همومهم وآلامهم إن كان حظهُ فى الحياة مثل حظهم ، ولِتنموَ فى نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم

وهو لا يرجو ثوابه ، ولا يخشى عقابه ، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بأنه لاينتفع بقليله ، فضلا عن كثيره ، واذا بلغ المرء فى حالته العقلية الى درجة أن تنقلب فى نظره حقائق الكون وتتغير نواميسه فيرى الرؤوس أذناباً والأذناب رؤوساً، والوسائل غايات ، والغايات وسائل ، فقل على عقله السلام

لا أكره أن ينشأ ولدى غنياً ولا أحب أن أُعرضه لمخاطر الفقر وآفاته ، ولكنى أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر

أخاف عليه أن يعتد بالمال اعتداداً كثيراً ، ويقَدُرَه فوق قدره ، ويعتبره الكمال الانسانى كله ، فلا يهتم باصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه وأن لا يجد من حوله من أصدقائه ومعارفه مرآة يرى فيها هناته وعيوبه ، لان عشراء الاغنياء متملقون مداهنون يطوون سيئاتهم ، ويزخرفون حسناتهم

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة لاتفهم من شؤون الحياة غير المادة ولا تُعنَى بشىء سواها ، فيصبح رجلا قاسياً صلباً ميت النفس والعواطف لايرحم بائساً ، ولا يعطف على منكوب ، ولا يرثى لأمة ، ولا يبكى على وطن ، ولا يشترك فى شأن من شؤون العالم العامة خيرها وشرها ، ولا يعنيه مادام

راضيا عن نفسه مغتبطاً بحظه أسقطت السماء على الارض أم بقيت فى مكانها

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والفنون والآداب ويزدرى المواهب والعقول والفضائل والمزايا ، فيصبح عار أمته وشنارها ، ووصمتها الخالدة التى لاتزول ، ومن أُشرب قلبُه حبَّ المال ونزل من نفسه إلى قرارتها لا يحترم غيره ولا يقيم إلالأربابه وزناً ، ويخيل اليه أن من عداهم من الناس لاقيمة لهم فى الحياة بل لاحق لهم فى الوجود

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلاَّ من غنية يرى انها هى التى تليق بمقامه ومنزلته ، ومن اشترط الغِنَى في زوجة قلما يستطيع أن يشترط شيئاً سواه ، فيسقط فى زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لاينفعه ماله ولا جاهه

أخاف عليه ان وَلَد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر فى تهذيب ولده وتربيته ، فيتركه صغيراً فى أيدى الخدم وكبيراً فى أيدى عشراء السوء ، فيصبح نكبته الكبرى فى حياته ، وعاره الدائم بعد مماته

أخاف عليه أن يقضى أيامه ولياليه خائفاً مذعوراً مروَّع القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة ان خسر ، ويَصعقه فَوْتُ الربح

ان فاته ، ويطير بنومه وهدوئه ويذهب براحته وسكونه هبوطُ الاسعار ، ونزول الاسهم ، وتقلبات الاسواق ، وخسران القضايا ومنازعات الخصوم ، والآفات السماوية ، والجوائح الارضية

وما حُزنُ الفقير الذى انفق آخر درهم بيده من حيث لايعرف له طريقاً إلى سواه على نفسه وعلي مستقبله باشد من حزن الغنى الشحيح على الدرهم الذى نقص من مليونه ، أو الذى كان يؤمل أن يتمم به مليونه فلم يُتَح له

وما ليلة البائس المسكين الذى يتصايح أولاده من حوله جوعاً ولا يجد ما يسد به رمقهم باطول من ليلة الغنى الذى يسقط اليه الخبر بان سلعة من سلعه قد نفقت ، أو أن سهماً من أسهمه قد نزل

ولقد رأيت بعينى من جُنّ وهو واقف ينظر إلى قصر من قصوره يحترق ، وسمعت كثيراً من حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التى لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الاملاق ، وكلُّ أثرها عندهم انها تنقلهم إلى منزلةٍ فى الغنى أدنى من منزلتهم الاولى

أخاف عليه أن يصبح واحداً من أولئك الوارثين المستهتَرين الذين لا عمل لهم فى حياتهم سوى هدم حياتهم بايديهم وهدم

ماترك لهم آباؤهم واجدادهم من مال وجاه ، فأندب حظي فى قبرى وأقرع السنّ على أن لم أكن فارقت هذه الحياة ولا مال لى فيها ولا ولد

ولا أزال اذكر حتى الساعة اننى مررت باحد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين متناقضين ، رأيت غلاماً من الوارثين جالساً باحدى الحانات يمرح في نعمائه ، وآخر من المتشردين نائماً تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب في بأسائه ، أما الاول فقد كان جالساً بين مائدتى شراب وقمار ، تسلب الاولى عقله والاخرى ماله ، وقد أحاط به جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة فى ميادينها ، يضحكون لنكاته ، ويؤمنون على أقواله ، ويصدقون اكاذيبه ، ويتحركون بحركاته ، ويسكنون بسكونه ، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ويصيح صياح الثعالب ، أما الثاني فقد كان عارياً إلا قليلا ، يفتح إحدى عينيه من حين إلى حين كلما رنّت في اذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم ، ويضم ركبتيه الى صدره كلما أحس بصوت مركبة مارة بجانبه ، وقد يبسط كفه أحياناً وهو مغمض إن خُيل اليه أن يداً تمتد اليه بالاحسان ، ولا يد هناك ولا احسان

رأيت هذين المنظرين الغريبين المتباينين فثارت فى نفسى فى تلك الساعة عاطفتان مختلفتان ، عاطفة البغض والاحتقار للاول ، وعاطفة الرحمة والشفقة على الثانى ، وقلت فى نفسى : لو كان لى ولد وكان لابد له من أن يكون أحد هذين الغلامين ، إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثراً ، أو المتشردَ النائم من تحته يسأل الناس لقمة فلا يجدها ، لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين ، على أن أراه بين جماعة الوارثين ، لانى أرجوله فى الاولى أن يجد بين الراحمين راحماً يحسن اليه ويستنقذه من شقائه ويأخذ بيده فى طريق الحياة الطيبة الصالحة ، أما فى الثانية فانى لاأرجو له شيئاً

ان للرحمة طيشاً كطيش القسوة والشدة ، واطيش الراحمين ذلك الذى يستنفد أيام حياته فى جمع الثروة لاولاده دائباً ليله ونهاره لايهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر فى شأن تربيتهم وتعليمهم ضناً بهم أن يزعج نفوسهم بشىء من تكاليف الحياة وأثقالها ، فاذا ذهب لسبيله وخلى بينهم وبين ذلك المال الذى جمعه لهم لايكون لهم من الشأن فيه أكثر مما يكون لجماعة الحمالين فى الاثقال التى يحملونها من مكان إلى آخر ، فهم ينقلونه من خزائنه شيئاً فشيئاً الى خزائن الخمارين والمرابين

والعاهرين حتى ينتهى ، فاذا فرغوا منه جلسوا فى عَرَصاتهم المقفرة جِلسةَ الباكى الحزين ، صُفرَ الاكف ، فارغى الجيوب ، مطرقى الرؤوس ، لا حول لهم ولا حيلة ، قد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم ، وهدموا فى عام واحد أو عامين قرناً كاملا مجيداً من أعلاه إلى أسفله ، ولا يعلم إلاّ الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك

ولو أن أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم اشفاقاً صحيحاً لرحمهم من هـذا المصير المحزن وضنّ بهم على هذا الميراث المشؤوم

يقولون ان الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات ، وأنا أقول اننا اذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقى وأن لا ننخدع بصور الالفاظ وألوانها فان للاغنياء جرائم كجرائم الفقراء بل أشد منها خطراً وأعظم هولاً ، فان كان بين الفقراء اللصوص والقتلة والعيارون وقاطعو الطريق ، فبين الاغنياء المحتالون والمزورون والمغتصبون والخائنون والمداهنون والمماثلون وأصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم ، والتجار الذين يسرقون من الامة فى شهر واحد باسم الحرية التجارية مالا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعيَّاروه

فى سنة كاملة ، والقوام والاوصياء الذين يرثون التركات من دون وارثيها ، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها ، والسماسرة الذين يغتالون الاسواق باجمعها ، والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها ، والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها

على أن جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغنى ، فلولا شح الاغنياء باموالهم وكلبُهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وُجد فى الارض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق ، ولا يسرق السارق ولا ينهب الناهب ولا يلصُّ اللص الاّ جزءاً من حقه الذى كان يجب أن يكون له لو كان للمال زكاة وللرحمة سبيل إلى الافئدة والقلوب

ليفتح الاغنياء المدارس وليبنوا الملاجىء ولينشئوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين وليتعهدوا المنكوبين والساقطين فى ميدان الحياة بالمساعدة والمعونة ، فان وجدوا بعد ذلك لصوصاً أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر ولينعوا عليه جرائمه وآثامه

لا أريد أن أقول إن الغنى علة فساد الأخلاق ، وأن الفقر علة صلاحها ، ولكن الذى أستطيع أن أقوله عن تجربة واستقراء

إني رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين ، ولم أرَ الاّ قليلاً من أبناء الأغنياء عاملين

ان العلوم والمعارف ، والمخترعات والمكتشفات ، والمدنيـة الحديثة بأجمعها حسنة من حسنات الفقر ، وثمرة من ثمراته ، وما المداد الذى كتبت به المصنفات ودونت به الآثار الا دموع البؤس والفاقة ، وما الآراء السامية والافكار الناضجة التى رفعت شأن المدنيـة الحديثة الى مستواها الحاضر الا أبخرة الادمغة المحترقة بنيران الهموم والاحزان ، وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية ، والتصورات الفنية ، الا من صدوع القلوب الكسيرة ، والافئدة الحزينة ، وما أشرقت شموس الذكاء والعقل فى مشارق الأرض ومغاربهـا الاّ من ظلمات الاكواخ الحقيرة والزوايا المهجورة ، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء وحكماء وأدباء الاّ فى مهود الفقر وحجور الاملاق ، ولولا الفقر ما كان الغـنى ، ولولا الشقاء ماوجدت السعادة

ان المجتمع الانسانى اليوم ميدانُ حرب يعترك فيه الناس ويقتتلون ، لايرحم أحد أحداً ، ولا يلوى مقبل على مدبر ، يَعْدون ويُسرعون ، ويتصادمون ويتخبطون ، ويأخـذ بعضهم

بتلابيب بعض ، كأنهم هاربون من معركة ، أو مفلتون من مارستان ، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامهم ، وتموج موج البحر الزاخر ، يغرق فيه من يغرق ، وينجو من ينجو

أتدرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذى لم تصل الى مثله فى دور من أدوار حياتها الماضية ؟ ولم هذا الجنون الاجتماعى الثائر فى أدمغة الناس خاصتهم وعامتهم، علمائهم وجهلائهم ؟ ولم هذه الحروب القائمة ، والثورات الدائمة ، والنزاع المستمر بين البشر جماعات وأفراداً ، وقبائل وشعوباً ، وممالك ودولاً ؟

لا سبب لذلك سوى شىء واحد، وهو أن الناس يعتقدون اعتقاداً خطأ أن المال أساس السعادة وميزانها الذي توزن به ، فهم يسعون اليه لا من أجل القوت وكفاف العيش كما يجب أن يكون ، بل من أجل الجمع والادخار ، والمال في العالم كمية محدودة لا تكفى لملء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع ، فهم يتخاطفونه ويتناهبونهُ ويتصارعون من حولهِ كما تتصارع الكلاب حول الجيف المطّرحة ، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة أو تنازع البقاء، وما هو بالتنازع ولا التناظر ، انما هو العراك والتناحر ، والدم السائل ، والعدوان الدائم ، والشقاء الخالد

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة أن يفهم الناس أن لا صلة بين المال وبين السعادة ، وأن الإفراط فى الطلب شقاء كالتقصير فيه ، وأن سعادة العيش وهناءه وراحة النفس وسكونها لا تأتى إلاّ من طريق واحد ، وهو الاعتدال

*
* *

الآن أستطيع غير خاشٍ لوماً ولا عتباً أن أقضى للناشىء الفقير على الناشىء الغنى قضاءً لا مجاملة فيه ولا محاباة ، ومن ذا الذى يجامل الفقراء ويحابيهم ؟ وأن أقول للناشىء الفقير: صبراً يا بُنىّ وعزاءً ، فانك لم تخلق إلاّ للعمل ، فاعمل واجتهد ، ولا تعتمد في حياتك إلا على نفسك ، ولا تحصد غير الذى زرعته يدك ، فان لم تجد معلماً يعلمك فعلم نفسك ، والزمن خير مؤدب ومهذب ، وان ضاقت بك المدارس فادرس فى مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها ، وان كنت ممن لا يعدون وظائف الحكومة ومناصبها غنماً عظيماً كما يعدها القَعَدة العاجزون ، فها هو ذا فضاء الأرض أمامك فامشِ فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور القواطع التى ليس لها مثل عقلك وفطنتك ، وحيلتك وقوتك ، فان الله لم يخلقك فى هذا العالم ولم يبرزك الى هذا الوجود لتموت فيه جوعاً أو تهلك ظمأ ، ولا تصدق ما يقولونه

لك من أن الناشئ الغني أسعد منك حالا أو أوفر حظاً وإن راقك منظره وأعجبك ظاهره ، فلكل نفس همومها وآلامها ، وهموم الفقر على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها

وحسبك من السعادة فى الدنيا ضمير نقى ونفس هادئه وقلب شريف ، وأن تعمل بيدك فترى بعينيك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء فى الارض التى فلحها بيده وتعهدها بنفسه وسقاها من عرق جبينه

قتيلة الجوع

قرأت فى بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشرطة عثروا بجثة امرأة فى جبل المقطم فظنوها قتيلة أو منتحرة حتى حضر الطبيب ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً

تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميتة الشنعاء فى مصر وهذا أول يوم سَجلتْ فيه يدُ الدهر فى جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد

لم تمت هذه المرأة المسكينة فى مفازة منقطعة أو بيداء مِجْهل فنفزع فى أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل فى جميع حوادث الكون التى لا حول لنا فيها ولا حيلة بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم وفى ملتقى غاديهم برائحهم ، ولا بد أنها مرتْ قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع مجيباً ووقفتْ فى طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها فلم تجد مَن يمد اليها يده بلقمة واحدة تسد بها جوعتها، فما أقسى قلب الانسان ، وما أبعد الرحمة من فؤاده ، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم في ساعتها الاخيرة ؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلباً من الانسان فذهبت اليه تبثه شكواها ، أو أن الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستمنحه فضلة طعامه ، وأحسبُ لو أن الصخر فهم شكواها لاشكاها [1] ولو أن الوحش ألم بسريرة نفسها لرثى لها وحنا عليها؛ لأنى لا أعرف مخلوقاً على وجه الارض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه امام مشهد الجوع وعذابه غير الانسان

ألم يلتق بها أحد فى طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها!

ألم يكن لها جار يسمع أنينها فى جوف الليل ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة فى طلب القوت فيكفيها أمره!

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين أفراد الامة جميعها من أصحاب قصورها الى سكان اكواخها رجل واحد يملك رغيفاً واحداً زائداً عن حاجته فيتصدق به عليها؛

اللهم لا هذا ولا ذاك ، فالمال والحمد لله كثير والخبز أكثر منه ومواضع الخَلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراءون ويسمع صداها السامعون ولكن الامة التى ألفت الا تبذل

(١) شكا اليه فاشكاه أى أرضاه وقبل شكواه

معروفها الا فى مواقف المفاخرة والمكاثرة والتى لاتفهم معنى الاحسان الا أنه الغُل الثقيل الذى يوضع فى رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلباً رحيما

لقد كان الاحسان فى مصر كثيراً في عصر الاكتتابات والحفلات وفى العهد الذى كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الصحف تسجيلا يشهده ثلاثة عشر مليونا من الشهود ، أما اليوم وقد أصبح كل امرىء موكولا الى نفسه ومسئولا امام ربه وضميره ان يتفقد جيرته وأصدقاءه وذوى رحمه ويتلمس مواضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدها فهاهم الفقراء يموتون جوعا بين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا معين

لقد كان فى استطاعة تلك المرأة المسكينة ان تسرق رغيفاً تتبلغ به أو درهما تبتاع به رغيفاً فلم تفعل ، وكان فى استطاعتها أن تعرض عرضها في تلك السوق التى يعرض فيها أعراضَهن الفتيات الساقطات فلم تفعل لانها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها على أن تعيش بعارها ، فما أعظم جريمة الامة التى لا يموت فيها جوعا غير شرفائها وأعفائها

أعرف فى هـذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد ومركز واحد ،أحدهما خير الناس والآخر شر الناس ، وان كان الناس لايرون رأى فيهما

أما الأول فهو رجل قد أخذ نفسه منـذ نشأته بمطالعة كتب الاخلاق والآداب ومزاولتها ليله ونهاره فقرأ فيهافصول الصدق والامانة والعفة والزهدوالسماحةوالنجدةوالمروءةوالـكرم وقصص السمحاء والاجواد والرحمـاء والمؤثرين وافتتن بتلك الفضائل افتتاناً شديداً ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر فى نفسه أن الناس قد عرفوا من الادب مثل ماعرف وفهموا من معناه مثل ما فهم وأخذوا منه بمثل الذى أخذ فغضب فى وجه الاشرار وابتسم فى وجه الاخيار ، والاولون أكثر عدداً وأعظم سلطة وجاهاً ، فسمى عند الفريقين شرساً متوحشاً ، وامتدح إحسان المحسن ، وذم إساءة المسيء ، والمحسنون فى الدنيا قليلون، فسمى وقحاً بذيئاً حتى بين المحسنين ، وبذل معروفه للعاجز الخامل ومنعه القادرَ النابه فلم يشعر بمعروفه أحد ، فسمى بخيلا ، واعتبر الناسَ بقيمهم الادبية لا بمقاديرهم الدنيوية فلقى الاغنياء والاشراف بمثل مايلقى به العامة والدهماء فسمى متكبراً ، وقال لمن جاءه

يساومه فى ذمته إنى أحبك ولكنى أحب الحق أكثر منك فكثر أعداؤه وقل أصدقاؤه

أما الثانى فاقل سيئاته انه لايفى بوعد يعده ولكنه يحسن الاعتذار عن اخلاف الوعود ، فلا يسميه أحد مخلافاً ، وما رآه الناس فى يوم من أيامه عاطفاً على بائس أومنكوب ولكنه يبكى لمصاب البائسين والمنكوبين ويستبكى الناس لهم، فعُدَّ من الاجواد السمحاء ، وكثيراً ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم ولكنه لايزال يمسح رءوسهم ويحتضنهم الى صدره في المجامع والمشاهد كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين، فسمى الوصى الرحيم ، ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم الا انه يخلط جده بالهزل ومرارته بالحلاوة فلم يعرف الناس عنه شيئاً سوى أنه الماجن الظريف

ذلك هو الادب الذى أصبح فى هذا العصر رأياً عاما يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم ويعلمه الوالدُ ولده والاستاذ تلميذَه ويقتتل الناس اقتتالا شديداً على انتحاله والتجمل به كما يقتتلون على أعز الاشياء وأنفسها حتى تبدلت الصور وانعكست الحقائق وأصبح الرجل الصادق المخلص أحرج الناس بصدقه وإخلاصه صدراً وأضلهم بهما سبيلا ، لا يدرى أيكذب

فيسخط ربه ويرضى الكاذبين ، أم يصدق فيرضى نفسه ويسخط الناس أجمعين ، ولا يعلم أيهجر هذا العالم الى عزلة منقطعة يقضى فيها بقية أيام حياته غريباً شريداً ، أم يبرز للعيون فيموت هما وكمداً

*
* *

« يجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح ، وأن يكون أدب الجوارح تابعاً له وأثراً من آثاره ، فان أبى الناس الا أن يجعلوا أدب الحركات والسكنات أساس أعمالهم وعلائقهم وميزان قيمهم وأقدارهم فليعلموا أن العالم كله قد استحال الى مسرح تمثيل وأنهم لا يؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين »

ايفون الصغيرة (١)

« مترجمة »

ماتت وكأنها لم تمت ، ليس على وجهها أثرٌ واحد من آثار الآلام التي قاستها في مرضها ، يحسبها الرائي نائمة نوماً هادئاً لذيذاً ويخيل اليه أنه يسمع صوت أنفاسها المترددة ، ويرى هبوط صدرها وارتفاعه

أين صفرة الموت ونحوله ، أين آلام النزع وشدائده ، أين الغضون التي خلفتها الاوجاع فوق جبينها ، والخطوط الزرقاء التي رسمتها حول جفنيها ؟

---

(١) وهي فتاة صغيرة عثر بها في طفولتها على باب احدى الكنائس في فرنسا ناظر مدرسة قروية وكان شيخاً كبيراً مات جميع اولاده وأحفاده وبقي هو من بعدهم وحيداً مستوحشاً فأنس بها حين وجدها أنساً شديداً وسماها (إيفون الصغيرة) لأنه لم يكن يعلم من أمر نسبها شيئاً . فأصبحت سلوته الوحيدة في شيخوخته وعني بتربيتها وتهذيبها حتى بلغت السابعة من عمرها . فأصابها مرض لم يمهلها الا بضع ليال حتى ذهب بها الى ربها فرثاها احد الشعراء الغربيين بهذه القطعة

لقد مات كل ذلك بموتها فعادلها رونقها وبهاؤها ، وأصبحت كأنما قد خُلقت الساعةَ ولما تنبعث الروح فى جسدها

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ أيام قلائل أمام المدفئة باسمةً مطمئنة تلاعب هرتها ، وبهذا الفم الارجوانى القانى كانت تغنى أمام قفص عصفورها أنشودة السعادة والحياة وبهاتين اليدين البيضاوين اللينتين كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها الشيخ

أما اليوم فقد انقضى ذلك كله لأن حياتها قد انقضت

آخر كلمة نطقت بها قبل موتها « سأموت الساعة فائتونى بعصفورى أودعه » فأتوها بقفص عصفورها وعلقوه بقائم سريرها فظلت تنظر اليه باسمة متطلّقة ، وظل العصفور يلعب ويغرد تغريداً شجياً ، وهو لا يعلم أنه ينشد فوق رأسها أنشودة الموت

وهنا وقف الشيخ الذى تبناها بجانب فراشها واجماً حزيناً مشرد اللب ذاهل العقل ومد يده إلى يدها الضعيفة الواهية التى كانت بالأمس عكاز شيخوخته وسند حياته فأخذها ووضعها على صدره كأنما يريد أن يمد حياتها بتلك البقية الباقية فى قلبه من الحياة لتعيش من بعده ولو ساعة واحدة حتى لا يراها تموت بين يديه ، وظل على حالته تلك هنيهة ثم التفت فجأةً إلى

أصدقائه وقال لهم : ها هى الحرارة قد بدأت تدب فى جسمها شيئاً فشيئاً ، فنظروا اليه آسفين محزونين، ثم نكسوا أبصارهم وأسبلوا مدامعهم ، فظل يدير بينهم عيوناً حائرة ويتنقل بنظراته ههنا وههنا كأنما يسألهم المعونة على أمره ، ومن ذا يُعين على القدر أو يعترض سهمَ المنية القاتل دون رميَّته !

وما هى الا لحظة قصيرة حتى شعرَ أن يدها تجذب يده فانتفض وحنا عليها فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمته ضمة كانت فيها نفسُها.

إنا لله وإنا اليه راجعون ! ماتت إيفون الصغيرة ، ماتت الطفلة الوديعة الجميلة، ماتت الفتاة الرزينة الصابرة ، فى سبيل الله نجمٌ تلألأ في سماء الحياة لحظة ثم هوى ، وغصنٌ أزهر فى روض المنى ساعة ثم ذوى. وقدح من البِلّور لم تكد تمسه الشفاه حتى انكسر ، وعقد من اللؤلؤ لم ينتظم فى سمطه حتى انتثر

هذه الغرف التى طالما أنارتها بابتساماتها حتى فى الساعة التى تختفى فيها جميع الابتسامات ، والحديقة التى كانت تقضى فيها كل يوم بضع ساعات من ليلها أو نهارها تلاعب أطيارها وتقطف أزهارها وتتعهد أشجارها ، والمماشى التى كانت تخطر على حصبائها فيصيرها شعاع خديها ياقوتاً ومرجاناً ، قد خلت جميعها منها ،

وهيهات أن يُسعدها الحظ برؤيتها بعد اليوم

كانت إيفون جميلة الخلق طيبة النفس نقية الضمير تحب الأحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم ، فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منه لابيها الشيخ العجوز ، ولا تتودد الى الشيوخ الفانين أصدقاء أبيها وجلسائه أكثر مما تتودد إلى وافد غريب يهبط قريتها للمرة الاولى فى حياته ، وما علِموها قط اختلفت مع فتى أو فتاة من تلاميذ مدرستها لأنها كانت تستهوى الطيب منهم بلطفها وأدبها ، والخبيث بعفوها وصفحها ؛ وهى وان لم تكن تعلم أنها لقيطة ولكن من كان ينظر فى عينيها ويرى ذبولهما وانكسارهما ولمعانهما الذى يشبه لمعان الدمع الرقراق يخيل اليه أنها قد أُلهمت ما كتمه الناس عنها وانها كانت تعلم أنها لا تعيش فى بيت أبيها بوصاية جدها كما كانوا يقولون لها بل فى بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر ميلادها شيئاً ، وكانت لاتزال تتراءى بين شفتيها ابتسامة حلوة هى الرُّقية التى كانت تفتح بها أقفال القلوب ثم تنزل فيما تشاء منها المنزلةَ التي تريدها ، ولم تكن ابتسامتها ابتسامة التصنع والتكلف التى يرثها أكثر الفتيات عن أمهاتهن ، بل ابتسامة الحب والاخلاص والحنو والعطف لذلك عَجِل الموت اليها لان سكان السماء لا يستطيعون أن

يعيشوا على ظهر الأرض زمناً طويلا

دقت أجراس الكنيسة تنعاها فلم تسمعها، ولو سمعتها لاهتزت لها فى سريرها شوقا ولهفة كما كان شأنها فى حياتها، ثم جاءت ساعةُ الدفن فحملوها على أيديهم ومشوا بها حتى وصلوا إلى الكنيسة فوضعوا نعشها فى ركن من أركانها ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الأخير، فبكاها الشيوخ الذين كانوا يحبونها ويأنسون بها والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها، والنساء اللواتى كن يحببنها من أجل حبها أبناءهن، وبكاها أكثرَ من هؤلاء جميعاً ذلك الشيخُ العجوز المسكين لأنها كانت كلَّ دنياه فخسرها فى ساعة واحدة

وظل كثير من الوقوف يرددن ذكراها فيقول أحدهم، طالما رأيتُها فى هذا الركن نفسه جالسة وحدها وبيدها الكتاب المقدس تتلو آياته، ويقول الآخر: لقد دخلتُ الكنيسة ليلة فرأيتها هائمة وحدها فى الظلام الحالك تحت هذه الاقبية فعجبت لصلاحها وتقواها، وتقول امرأة: لقد عثَرت ابنتى يوماً من الأيام فى منصرَفِها من مدرستها ببعض الاحجار عثرةً برّحتْ بها فاحتملتها على ظهرها حتى جاءت بها إلى المنزل، وتقول أخرى لقد كنت أراها تمر كل يوم بجارتنا فلانة المسكينة فتعطيها رغيفاً

من طعامها ثم تستمر أدراجها إلى مدرستها

وهكذا ظل كل منهم يذكر مايعرف عنها حتى حانت ساعة الدفن فعلت الاصوات بالبكاء ثم غيبوها فى قبرها وحثوا عليها التراب ، وكان الليل قد أظل المكان بجناحيه وساد فيه سكون موحش رهيب فانصرفوا مطرقين واجمين يقولون

« وارحمتاه لها لقد خرجت من الدنيا غريبة كما وفدت اليها »

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسى مذ أُعلنتْ هذه الحرب قبحها الله وقبح كل ما تأتى به ألا اكتب كلمة فى صحيفة سيارة فى أى شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها حتى ينقضى أجلها وان أترك هذا القلم فى مرقده هادئاً مطمئناً مدرَجا فى ذلك الكفن الأبيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت حتى يأتى ذلك اليوم الذى يستطيع فيه أن ينبعث كما يريد لا كما يُراد منه، ولكنّ نازلا عظيما نزل بهذا المجتمع المصري منذ عامين أو ثلاثة لم أحفل به فى مبدئه ولم أُلق له بالا وعددته فى النوازل الصغيرة المترددة التى لا تلبث غيومها أن تنعقد فى سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسمات الروح الالهي فتنقشع ، ولكن هاقد مضى العام والعامان والثلاثة وهو باق فى مكانه لا يتحول ولا يتحلحل بل تزداد قدمه على الايام ثباتا ورسوخاً ، واحسبه سيبقى فى مستقبل أيامه أضعاف ما بقى فى ماضيها ان لم تُثرْ عليه معشر الكتاب حربا شعواء تهز جدرانه هزاً وتدكها دكا وتُلحق أعاليها باسافلها

لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبال بتلك الأَلِيَّة التى كنت آليتها فلعل أصدقائى من أفاضل الكتاب يساعدوننى فى هذا الشأن الذى ان عجزنا عنه اليوم فما نحن بقادرين عليه غداً

نزلت بالأمة المصرية نازلة تلك المقاذر العامة التى يسمونها الملاعب الهزلية وما هى فى شىء من الهزل ولا الجد ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ولا باى فن من الفنون الادبية فاقبل عليها الناس اقبالا عظيما ، وأُغرموا بها غراماً شديداً ، فليقبلوا عليها ماشاءوا ، وليفتتنوا بها ما أرادوا ، ولكن فريقاً واحداً من الأمة هو الذى نضن به على تلك المواطن الساقطة أن تطأها قدمهُ ، أو يظلل رأسَه سماؤها ، لأنا نضن به على كل منقصة في العالم تُزرى به أو تنال من كرامته

ذلك الفريق المضنون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين أخوتنا وأبناءنا ، وعنوان مجدنا وشرفنا وصورة وجودنا وحياتنا ، ومناط آمالنا وأمانينا ، فائذنوا لكاتب من كتابكم وصديق من اصدقائكم أن يحادثكم قليلا فى هذا الشأن كما يحادث الأب ولده أو الأخ أخاه لا قاسياً ولا متجبراً بل عاتباً متلطفاً ، وأمله عظيم أن ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يحب لكم وما يعتقد انكم تحبون لأنفسكم

الحق أقول ان الحياء يكاد يعقد لسانى بين أيديكم فلا أدرى كيف أحدثكم ، ولا ماذا أقول لكم ؟

أأعظكم فى أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقباه مثل ما أعلم ، أو أدعوكم الى اجتناب سيئة لا أحسب أن بين كباركم وصغاركم من يجهل انها السيئة العظمى التى لم تُرزأ الامة بمثلها فى حاضر تاريخها أو ماضيه ، أو أقول لكم ان هذه الاماكن التى تطؤها أقدامكم انما هى مقابر المجد والشرف ومدافن الفضائل والأخلاق ، ومصارع الاعراض والحرمات ، وهل غاب علمُ ذلك عن أحد منكم فاعلمكم منه مالا تعلمون ؟

لايجهل أحد منكم شيئاً مما أقول ، ولكنه الشباب مازال يغرى الضعيف الذى لا يقوى على احتمال سلطانه وسيطرته بالاقدام على تلك المخاطر المهلكة فيمضى اليها قُدُما لايجهل مكان الخطر منها ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومثاورتها حتى يتردّى فيها وربما كان هذا هو كل الفرق بينى وبينكم

اننى لا أرى فى هذه المجامع التى تفتتنون بها وتتهافتون عليها حسنة تَغتفر سيئة أو جمالا يفى بقبح أو خيراً يعزى عن شر ، فتمثيلها سخيف بارد لا يستطيع من أُوتى حظا قليلا من الذوق الأدبي أن يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر اليه ، ومُلَحها

ثقيلة مستبشعة لو نطق بها ناطق في مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلّب نظره فى وجوه الجالسين من حوله لرأى في ابتسامات السخرية المترقرقة فى شفاههم مايذيبه حياء وخجلا ، وأناشيدها سوقية مبتذلة فى موضوعها وصورة أدائها لايطرب لمثلها الا أصحاب الاذواق العامية الخشنة الذين يطربون لنشيد الاذكار وطبول الزار وتعداد النائحات في المآتم والمناحات ، فماذا بقى فيها من وجوه الحسن بعد ذلك !

بقى فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة فى الامة كالفلاحين آبائنا وأولياء نعمتنا والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا والمحامين والاطباء والمعلمين أفاضل الامة وعيونها وغيرهم من طبقات الامة كالصناع والعمال والاكارين والباعة والمسترزقين

بل بقى ماهو شر من هذا جميعه ، وهو تمثيل الشهوات البدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا وأطفالنا وتصويرُها بتلك الصورة القبيحة التى تُرخَى على مثلها الستور وتقام من حولها الدعائم والجدران

فلو أن غريباً وفد إلى هذا البلد وهو لايعلم من شأنه شيأ فذهب إلى مكان من تلك الامكنة ليرى فى مرآته صورة الامة ممثلة فى مسارحها الوطنية لقضى عليها للنظرة الأولى بانها أحط الأمم وأدناها

ذلك الى ما يسمعه السامع فيها من ألفاظ السب والشتم وجمل الفحش والهُجر التى لا يطرق اذنَه مثلها فى أى موقف من مواقف حياته أو مشهد من مشاهدها الا اذا قُدر له أن يتغلغل بنفسه يوما من الايام فى تلك الاحياء العامية الساقطة حتى يصل إلى « عرب اليسار » أو « عشش الترجمان » فيسمعها هناك فى مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين

ولقد قال لى أحد الاصدقاء الظرفاء مرة إن شتائم (أم شولح) قد انتقلت الى بيتى ولا أعرف كيف انتقلت اليه، فانى أسمع الكثير منها يتردد فى أفواه الاطفال هازلين ، وفى أفواه الخدم جادّين

أتدرون أيها الاصدقاء من هم أولئك القوم الذين يسمون أنفسهم ممثلين ، ويسمون ما يهذون به على مسارحهم روايات ، والذين يدعونكم معشر المتعلمين الراقين الى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون ؟

لو أن جماعة من الزامرين وآخرين من الطبالين وآخرين من القرادين وجماعات غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين والبهلوانية والحواة والرقاة وبقية السائلين المستجدين الذين يمرون بأبواب منازلنا كل يوم ضاجين صارخين فلا نُلقى لهم بالاً ولا نعيرهم أذناً اتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا جماعة واحدة تعمل

يداً واحدة فى مكان واحد لكانوا هم بعينهم جوق كشكش والبربرى وشرفنطح لا فرق بينهم وبينهم سوى أن أولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين يقنعون باللقمة ويجتزئون بالشربة وهؤلاء يأبون إلا أن نقف على أبوابهم ونتعلق بأستارها فلا يفتح لنا حجابهم إلا إذا دفعنا الاتاوة المضروبة علينا

وألطف كلمة سمعتها فى هذا الشأن قول بعض المفكرين (كان الشر مفرقاً فى أنحاء البلد فجمعه الريحانى فى مكان واحد)

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الأصدقاء وأنتم عيون الأمة اليقظة وعقولها المفكرة أن تنخدعوا بألاعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين فترفعوهم بأيديكم الى هذه المرتبة العالية التى لم يخلقوا لها ولم يمتوا اليها بسبب من أسباب العلم أو الذكاء أو الشرف أو الخلق، وهاهم نوابغ الممثلين فى أمتكم أشقياء بؤساء لا يكاد يجد أكثرهم بين ظهرانيكم ما يقيمون به أود عيشهم أو يعينهم على على ماهم بسبيله من خدمة الفن والقيام عليه؟

من ذا الذى يذهب لمشاهدة التمثيل الجدى فى مسارح أبيض ورشدى وعكاشه وأمثالهم ان كنتم أنتم لا تذهبون اليها؟ ومن هو أولى بها من بعدكم ان قطعتم صلتكم بها؟

أيعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين

يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين فاذا فتش عنكم فى مكان آخر غيرها رآكم مزدحمين فى مراقص كشكش والبربرى وشرفنطح راضين عن مقامكم فيها مغتبطين بسفاسفها وهذياناتها

ألا تخشون أن يَستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهدان الغريبان — مشهدكم فى الاجواق الهزلية الساقطة ومشهد العامة والسوقة فى الاجواق الجدية الشريفة — ان الامة المصرية أمة غريبة الشأن يفسدها العلم ويصلحها الجهل ، أو أن يتطرف متطرف منهم فى رأيه فيقول : ليت الامة عاشت جاهلة عمياء موفوراً لها حظها من الاخلاق والآداب فذلك خير لها من علم يهوى بها فى مهواة الشقاء والعار

لقد رأيت فى حياتى صنوف الحيل والكيد وضروب السماجة والوقاحة فلم أر بين المحتالين والمتوقحين من هو أعظم كيداً ولا أسمج وجهاً من هؤلاء القوم

إنهم يحاولون دائماً أن يلبسوا مفاسدهم وشرورهم ثوب الفضيلة والجد وهو وان كان ثوباً شفافاً ينم عما وراءه إلا انه يكفيهم للذود عن أنفسهم فى مواقف الجدل والمناظرة كما يكفى البرقعُ الشفاف المرأةَ المتهتكة للدخول فى سلك المتحجبات

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا رذيلة من الرذائل إلا ويلصقونها به ، وينشدون مختلف الاناشيد فى السخرية به والهزء بصفاته وأعماله ثم لا يخجلون أن يقولوا بعد ذلك فى بعض تلك الاناشيد (ما دام بلادنا زراعية ، حبوا الفلاح ان كنتوا تحبو وطنكم)

وينتقدون فى رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء وينقمون على المصرى تبديد أمواله فى سبيل شهواته وليس للنساء فى مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان واغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم خصوصاً فى الساعة التى تمثل فيها هذه الروايات

ويهدمون اللغة العربية هدماً بهذه اللغة العامية الساقطة التى يكتبون بها رواياتهم وينظمون بها أناشيدهم وينشرونها فى كل مكان ويفسدون بها الملكات اللغوية فى أذهان المتعلمين ثم يزعمون بعد ذلك انهم أنصار اللغة العربية وحماتها فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة (مالها لغتنا العربيه ، آلْ همجيه ، يادى المصيبه يادى العار ، فشر دى لغة المدنيه ، اتْمسكوا بها صغار وكبار)

ولا يستحيون أن يجمعوا فى نشيد واحد من رواية واحدة

بين قولهم (دانا أبيع هدومى عشان بوسه ، من خدك القشطه ياملبن ، ياحلوة زي البسبوسة ، يامهلبية تمام واحسن) وبين قولهم (مصر يحميك ربك ، ماتشوفى الا أيام سعدك) أى انهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلمة ثم يحاولون أن يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات « الوطنية » و « حب وطنك » و « مت فى سبيل الأوطان » وأمثالها من الكلمات العذبة الجميلة التى لامعنى لها في أفواههم الا انهم يعتقدون ان المصريين قد بلغوا من الغفلة والبله مبلغاً لايبلغه أطفال المكاتب ولا سكان المارستانات

لاأرى لكم معشر الطلبة المصريين أمام هذه النازلة العظمى التى نزلت بنا الا أن ينتدب فريق من عقلائكم نفسه لنصيحة اخوانه بالامتناع عن الذهاب الى تلك الملاعب وشرح مضارها وسيئاتها لهم ، فان امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر وهكذا حتى يصبح فى عرفكم جميعاً ان الدخول إلى تلك الاماكن عار يخجل مرتكبه من الظهور به بين أصدقائه ومعارفه

نحن فى حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنا فى كل مكان أننا أمة أخلاق وآداب وأن فى نفوس أفرادنا من الصفات والمزايا مايرفعنا إلى مصاف الأمم العظيمة ، ومقياسُ عظمة الأمم فى نظر العالم انما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون باى شىء غير

ذلك ، فان فات آباءنا أن يورثونا خلق العظمة والإباء فى عهدهم فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا

انكم لا تذهبون فى الحقيقة إلى هذه الاماكن وحدكم بل يذهب اليها معكم اخوتكم واخواتكم وبقية أفراد اسركم لانكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ماشاهدتم وتروون لهم ماسمعتم ، فكأن سكان البلد جميعاً رجالا ونساء كباراً وصغاراً يجتمعون فى هذه البؤر الفاسدة في ساعة واحدة . فهل يستطيع أن يتصور متصور خطراً على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها أعظم من هذا الخطر !

انى لا أدعوكم إلى الامتناع عن الالمام بهذه المقاذر العامة من أجل أنفسكم فقط بل من أجل اخوتكم واخواتكم اليوم ، ومن أجل أبنائكم وأحفادكم غداً ، ومن أجل مستقبل الأمة المصرية كلها الذى أعتقد أنه أمانة في أيديكم ووديعة موكولة الى كرم نفوسكم وشرف ضمائركم

" اهدموا هذه الاماكن هدماً بالاعراض عنها واحتقارها وازدرائها ثم قفوا بعد ذلك على أطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر قائلين : هاقد نجت الأمة من خطر عظيم وها نحن قد قمنا جميعاً بالواجب علينا "

الشيخ على يوسف

هكذا تقوم القيامة ، وهكذا ينفخ الصور ، وهكذا تُطوى السماء طى السجل للكتاب

أفى مابين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذى كان ملء الافئدة والصدور وملء الاسماع والابصار ، وملء الارجاء والاجواء ، جُثةً نَحيلةً ضئيلة مُدرجةً فى كفن ملحدةً في مهوى من باطن الارض سحيق !

ما أعظم الفرق بين الحياة والموت : تغرب الشمس فلا تلبث أن تطلع من مشرقها ، وتتراكم السحب من دونها فلا تلبث أن تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة ، وتعرَى الاشجار عن أوراقها ثم تعود إلى جمالها مخضرة نضرة حينما تهب عليها نسمات الربيع ، وينام الاحياء فى مضاجعهم حتى اذا طلع عليهم الكوكبُ النهارىّ وعبثت أشعتُه بأهداب جفونهم قاموا من مراقدهم وذهبوا فى سبلهم التى خلقوا لها ، ويموت الميت فلا ينتظره منتظرٌ ، ولا يؤمل أوبتَه آمل ، فكأن ما صار اليه العدمُ الذى لم يسبقه وجود

اللهم إنا نعلم أن الموت غاية كل حى ، وأن مقاديرك التى تجريها بين عبادك ليست سهاماً طائشة ولا نياقاً عشواء ، وأن زهرة الحياة لا يمكن أن تنبت الا في التربة التى نبتت فيها أشواك الموت ، ولكننا لا نستطيع أن نملك عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع اذا فارقنا عزيز علينا، لان ساحة الصبر التي منحتنا أضيق من أن تسع نازلة البلاء الذى ابتليتنا، فاغفر اللهم لنا حنيننا وبكاءنا على الهلكى والذاهبين

اللهم انك تعلم انا نسير من حياتنا هذه فى صحراء محرقة ملتهبة لا نجد فيها ظلاً نستظل به ولا أكمةً نأوى اليها وأن الصديق الذى نعثر به فى حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التى ننتهى اليها فى تلك الصحراء بعد الأين والكلال وطول السير والسرى فنترامى فى ظلالها الوارفة ناعمين هادئين ، فاذا هبت ريح عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها في جو السماء وأصبحنا من بعدها ضاحين بارزين فأنا لا نجد بدا من البكاء والجزع ، لان من الشقاء مالا يستطاع احتماله ولا يطاق تجرع كاسه

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقي لنا عن كل ذاهب ، والنجمَ المتلألىء الذى كنا نتنوره من حين الى حين في هذه السماء

المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجومْ ، والدوحةَ الخضراء التي كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفراتها، فنحن ان بكيناه فانما نبكى الامل الذاهب والسعادة الراحلة والحياة الطيبة،ومن هو أولى بالتفجع والبكاء من سعادتنا وآمالنا!

ما كنا نرجو لهذه الامة غير هذين الرجلين ، ميت الامس الشيخ محمد عبده ، وميت اليوم الشيخ على يوسف، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على اكنافها، يمسكها الاول أن تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها ، ويمسكها الثانى أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها ، واليوم لا نرجولها من بعدهما أحداً ، فويل للامة في دينها، وويل لها في جامعتها

العلماء والخطباء والكتاب في هذه الامة كثير، ولكن الرجال قليل!

انما ينفع الامةَ ويضطلع بخطوبها ويحمل اعباءَها على عاتقه الرجلُ الذى يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الاسرة من أسرته التى يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعى لها فيقوم لها بكل ما تريد ويسعى لها سعى الكادح المجد ويرحم صغيرها ويحنو على كبيرها ويحتمل مغارمها ويغتفر عبث أطفالها وجهل شيوخها ويرى لها فى كل شأن من شؤونها خيراً مما ترى لنفسها ،أرضاها

ذلك أم أغضبها، من حيث لا يمن عليها بذلك ولا يطالب عندها جزاء ولا أجراً، بل من حيث لا تعلم ما يلاقى بينه وبين نفسه من آلام الحياة وما يعالج من شدائدها فى سبيلها

وكذلك كان شأن الشيخ على يوسف في أمته، فقد مات بموته آخر من بقى لها من الرجال

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه ، لان الذين ينظرون ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم، ولأن الحقيقة الكامنة فى سويداء قلبه كانت أعمق مكانا وأدق مسلكا من أن تتناولها النظرة الاولى ، ولانه كان مخلصاً متحنثاً يعمل في سره أكثر مما يعمل فى علانيته، ثم لا يدل بنفسه فى كلتا الحالتين على نفسه

رأيته في حادثة الازهر فى تلك الايام التى كان يظن فيها كثير من الناس أنه حرب على الازهر والازهريين يقضى كثيراً من لياليه متردداً على أبواب القائمين بالامر ضارعاً اليهم أن ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم أو بعض مايريدون قائلا عنهم ما كان يقوله النبى صلى الله عليه وسلم عن فئة حنين (اللهم أن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الارض أبداً) فلا يقف فى سبيله الا حماقة أولئك الذين كان يظن هؤلاء المساكين أنهم أصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم

ورأيته يضم إلى كنفه كثيراً من اصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة عبد الحميد وتنكر لهم الناس جميعاً خصوصاً أولئك الذين كانوا يزدلفون اليهم أيام أقبالهم ويمسحون وجوههم على أعتاب قصورهم ، وكان يلاقى في سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللائمين له مالا يستطاع احتماله ، فلم يبال بشيء من ذلك

ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا فى بعض أيام حياتهم حرباً عليه وشقاء له يعودون الى حظيرته واحداً بعد واحد يستغفرونه فيجلس اليهم ويتحدث معهم حديث المودة والاخاء كأنما كانوا معه على ميعاد

وما رأيته في يوم من ايام حياته حاقدا ولا واجدا ولا منتقما ولا طالباً بثأر ولا ذائدا عن نفسه الا فى الساعة التى يعلم فيها أنْ قد جد الجد وأنْ قد أصبح عرضه وشرفه على خطر، ولم أر سائلا دخل اليه يشكو حاجة من الحاج صادقا كان فيها أم كاذباً ويسأله المعونة عليها من ماله أو جاهه الا اعانه عليها ما وجد الى ذلك سبيلا ، رحمة وإشفاقا ، لا رياء ونفاقاً ، وكان يرى الرأى ويرى الناس جميعاً غيره فلا يثنيه عنه ثان حتى ينحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فاذا هو مصيب واذا الناس جميعاً مخطئون

فى سبيل الله ياعلى ما فقدنا بفقدك ، وفى ذمة الله وجواره

تلك الروح الطيبة الطاهرة التى عاشت ما عاشت في هذه الدنيا سراً كامناً بين أحناء ضلوعك لا يدركه ولا يكتنه باطنها الا قليل من الناس، فما رآها الناس جميعاً رأى العين الا وهى طائرة في جو السماء الى الى ربها، وكذلك شأن هذه الامة البائسة المحدودة لاترى رجالها ولا تعرف مكانهم ولا تشعر بعظمتهم الا وهم ذاهبون الى قبورهم حيث تنقطع الصلة بينها وبينهم، فمثلها ومثلهم كمثل صاحب الدار الذى يجهل أن في أرضها كنزاً مخبوءاً حتى اذا باعها ممن يستخرج ذلك الكنز منها جلس الى ظل حائطها يبكى بكاء البائس المحزون

لقد كنت يا على مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها، بل كنت أفضل من الحقيقة، لان الحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، أما أنت فكنت تخدم اصدقاءك وأعداءك، أما الاولون فلأنك كنت تحسن اليهم بجاهك أو بمالك أو برأيك، وأما الآخرون فقد كانوا يقتاتون من تلك القطرات من الدماء التى كانوا يستقطرونها من عرضك وشرفك، فويل للفريقين معا من بعدك، وكنت القطب الذى تدور حوله رحى الاقلام فى هذا البلد، فقد كانت وظيفة الكتاب أن يشرحوا آراءك أو يفسروا كلماتك أو يكتنهوا مقاصدك أو يوافقوك أو يخالفوك أو يمدحوك

أو يذموك ،فان كتبوا فى شأن من الشؤون غير هذا فتَروا واستبردوا ،فوا ضيْعة الاقلام وما أضيق مذاهب الكتاب بعد رحيلك ،وكنت العصمة التى تعتصم بها الامة فى مواقف بؤسها وشقائها، ومواطن خطوبها وكروبها، وما أَحسب الا أن الدهر يدخر لها من ذلك فى مستقبل أيامها أكثر مما ادخر لها في ماضيها ، فما أكثر شقاءها وبلاءها بعد اليوم

أيها الراحل الكريم !لقد كنت أرجو أن أجد بين جنبى بقية من الصبر أغالب بها هذا الحزن الذى أعالجه فيك حتى يبلى على مدى الايام كما يبلى الكفن لولا قدرٌ أبعدنى عن موطنك فى آخر أيام حياتك فأحرمنى جلسةً أجلسها بجانب سريرك اسمع فيها آخر كلمة من كلماتك وأرى آخر نظرة من نظراتك وحال بينى وبين خطوة أخطوها تحت نعشك أجزيك فيها ببعض ما مشيت لى من الخطوات فى حياتك ، ووقفة أقفها عند قبرك ساعة دفنك أذرف فيها على تربتك أول دمعة يذرفها الباكون عليك ، فلئن بكيتُ موتك يوماً فسأبكى حرمانى وداعَك أياماً طوالا حتى يجمع الله بينى وبينك

العظمة

ان رأيت شاعراً من الشعراء أو عالماً من العلماء أو نبيلا فى قومه أو داعياً في أمّته قد انقسم الناسُ في النظر اليه وتقدير منزلته انقساماً عظيماً وانفرجت مسافة الخلف بينهم فى شأنه فافتتن بحبّه قومٌ حتى رفعوه إلى رتبة الملك ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به الى منزلة الشيطان فاعلم انه رجل عظيم

العظمة أمر وراء العلم والشعر والامارة والوزارة والثروة والجاه ، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون والعظماء منهم قليلون ، وانما هى قوة روحيّة موهوبة غير مكتسبة تملأ نفس صاحبها شعوراً بأنه رجل غريب فى نفسه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره غير مطبوع على غِرار الرجال ولا مقدود على مثالهم ولا داخل فى كاية من كلياتهم العامة ، فاذا نزلتْ نفسُه من نفسه هذه المنزلة أصبح لا ينظر إلى شىء من الاشياء بعين غير عينه ولا يسمع بأذن غير أذنه ولا يمشى فى طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفسه ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شأنه

وشان صاحبه سلطانا عليه في رأى أو فكر أو مشايعة لمذهب أو مناصبةٍ لطريقةٍ بل يرى لشدّة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم أنّ حقا على الناس جميعاً أن يستقيدوا له وينزلوا على حكمه ويترسموا مواقع أقدامه في مذاهبه ومراميه فترى جميع أعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس وأعمالهم، تَبهر العيون وتدهش الانظار وتملأ القلوب هيبة وروعة، فان كان شاعراً كان مبتكراً فى معانيه أو طريقته، أو كاتباً أخذ على النفوس مشاعرها وأهواءها، أو فقيهاً هدم من المذاهب قديماً وبنى جديداً، أو ملِكا شغل من صفحات التاريخ مالم يشغله ملك سواه، أو وزيراً ساس أمته بسياسة جديدة لاعهد لهم بمثلها، أو قائداً ضرب الضربة البِكر التى تردد الآفاق صداها

تلك هى العظمة، وهذا هو الرجل، ومن كان هـذا شأنه كان فتنة الناس فى خلواتهم ومجتمعاتهم ومعترك أنظارهم وأفهامهم ومثار الخلف والشقاق فيما بينهم في استكناه أمره وتقدير منزلته فيُعجب به الذين فطروا على الاعجاب بكل غريب والافتتان بكل جديد حتى ينتقل بهم الاعجاب به الى الافتتان بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته والاغراق في حبه والمشايعة له والسير بعجائبه وغرائبه فى كل صقع وناد، فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين

على عبقريته ونبوغه موقعاً غير جميل فلا يجدون لهم بداً من مقابلة الاغراق فى حبه بالاغراق في بغضه على قاعدة المشاذة والمعاندة، وهنالك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه ويناضل عنه أولئك يريدون استبقاءها في يده وهو واقف بينهم يُدير انظاره فيهم هانئاً مغتبطاً لا يحزن ولا يبتئس لانه يعلم أن جميع هذه الاصوات الصارخة المختلطة حوله انما هى أبواق شهرته وعظمته

لا أريد أن أقول إن الرجل العظيم مصيب فى كل ما يرى وما يفعل وما ينتهج لنفسه وللناس من سبل الحياة فربما كان من هو أضعف منه قوة وأخمل ذكراً أسدُّ منه رأياً وأصدق نظراً، وانما أريد أن أقول إن أحداً من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب وعقول المفكرين وألسنة الناطقين وقلوب المحبين والمبغضين إلا الرجل العظيم

أحبّ علياً قوم حتى كفروا بحبه، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه، وسمي بعض الناس أبا بكر وعمر شيخي المسلمين وأنكر بعضهم صحبتهما وإخلاصهما، وعاش محي الدين بن العربى بين فئة تراه قطب الاولياء وأخرى تراه شيخ الملحدين، واغتبط فريق من المسلمين بابن رشد فسموه فيلسوف الاسلام، ونقم

عليه فريق فملأوا وجهه بصاقاً فى المسجد الجامع ، وسمى قوم صاحب كتاب الاحياء حجة الاسلام ومزق آخرون كتابه ونثروه فى مهاب الرياح ، وعاش المعرى بين رضا الراضين عنه ونقمة الناقمين عليه ، يلثم الاولون مواطيء قدميه ، ويسحبه الآخرون على وجهه فى الطرقات العامة، وشرب سقراط كأس السم بين أفواه باسمة شماتة به ، وعيون دامعة حزناً عليه ، وجرت الاقلام بمدح المتنبي تارة فاذا هو سيد الشعراء ، وبذمه أخرى فاذا هو أكبر المتكلفين، ورفع قوم شكسبير الى مرتبة الكمال الانسانى فقالوا نابغة الدهر، وهبط به آخرون إلى أدنى منازل الخسة والدناءة فقالوا المنتحل الكذاب، وافتتن المفتتنون بنابوليون الاول فعلوْا به الى رتبة الانبياء، وتنكر له خصومه واعداؤه فسلكوه فى سلك الحمقى والممرورين، وذاق كل من لوثر وكالفين وغليلو وڤولتير ونيتشه وتولستوى كاس الحب والبغض فى حياته وبعد مماته الى القطرة الاخيرة منهما ، وما انقسم الناس فى هذا البلد فى هذا العصر فى شأن رجل من الرجال انقسامهم في شأن جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وقاسم أمين

وما كان واحد من هؤلاء جميعاً بالمنزلة التى يرفعه اليها المغرقون فى حبه ، أو ينزل به اليها الغالون فى بغضه، ولكنهم كانوا

قوماً عظماء فانقسم الناس في شأنهم وذهبوا في أمرهم هـذه المذاهب البعيدة المترامية، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم، الا فى شأن الرجل العظيم

ليس معنى الوجود فى الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها نفقاً يتصل أوله بباب مهده وآخره بباب لحده ثم ينزلق فيه انزلاقاً من حيث لا تراه عين ولا تسمع دبيبه اذن حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من بنات الارض، وانما الوجود قرع الاسماع واجتذاب الانظار وتحريك أوتار القلوب واستثارة الالسنة الصامتة وتحريك الاقلام الراكدة وتأريث نار الحب في نفوس الاخيـار ، وجمرةِ البغض فى قلوب الاشرار ، فعظماء الرجال أطول الناس أعماراً وان قصرت حياتهم، وأعظمهم حظًّا فى الوجود وإن قلت على ظهر الارض أيامهم

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقاؤها، ويحمل أحجارَ هيكلهـا على رءوسهم هادموها وبُناتهـا ، فحيث ترى سواد الاعداء فهناك سواد الاصدقاء، وحيث ترى الفريقين مجتمعين في صعيد واحد فاعـلم أن العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعاً

العظمة قصر مشيد مرفوع على سارتين منحوتتين من حب

الناس وبغضائهم ، فلا يزال ذلك القصر ثابتاً فى مكانه لا يتزعزع ولا يتحلحل مابقيتا فى مكانهما، فاذا سقطت احداهما عجزت الاخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب أختها فسقط هو بسقوطهما

لا يُعجبنَّك أن يتفق الناس جميعاً على حبك، لانهم لا يتفقون إلاّ على حب الرجل الضعيف المهين الذى يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره ثم يُقعى على ذنبه تحت أقدامهم إقعاء الكلب الذليل يضربونه فيصطبر لهم ويعبثون به فيبصبص بذنبه طلباً لرضاهم ، ويهتفون به فيقترب، ويزجرونه فيزدجر

ولا يعجبنك أن يتفقوا على بغضك لانهم لا يتفقون إلاّ على بغض الخبثاء الاشرار الذين لا يحبون أحداً من الناس فلا يحبهم من الناس أحد

وليعجبنك أن يختلفوا فى شأنك وينقسموا فى أمرك ويذهبوا فى النظر اليك وتقدير منزلتك كل مذهب، فتلك آية العظمة وذلك شأن الرجل العظيم

كن القائد الذى تعترك الجيوش حوله من بين ذائد عنه وعادٍ عليه ، ولا تكن الجندىّ الذى يَسفك دمه ليسقى به دوحة العظمة التى ينعم فى ظلالها القائد العظيم

كن الناطق الذى تحمل الريح صوته الى مشارق الارض

ومغاربها، ولا تكن الريح التى تختلف الى آذان الناس باصوات الناطقين من حيث لا يأبهون لها ولا يعرفون لها يدها عندهم

كن النبتة النضرة التى تعتلج ذراتُ الارض في سبيل نضرتها ونمائها، ولا تكن الذرة التى تطؤها الاقدام، وتدوسها الحوافر والاخفاف

كن زعيم الناس ان استطعت، فان عجزت فكن زعيم نفسك، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء والتاصُّق بهم أو مناصبتهم العداء والوقوف فى وجههم، فان فعلت كنت التابع الذليل، وكانوا الزعماء الاعزاء

حرية الانتقاد

سألنى بعض الاصدقاء عن رأيى فى الانتقاد وشروطه وحدوده وآدابه وواجباته ، ورأيى فيه ألا شروط له ولا حدود ولا آداب ولا واجبات ، وأن لكل كاتب أو قائل الحق فى نقد ما يشاء من الكلام ، مصيباً كان أم مخطئاً ، محقاً أم مبطلاً ، صادقاً أم كاذباً ، مخلصاً أم غير مخلص ، لأن النقد نوع من أنواع الاستحسان والاستهجان ، وهما حالتان طبيعيتان للانسان لا تنفكان عنه من صرخة الوضع ، الى أنة النزع ، وكل ما هو طبيعى فهو حق لا ريبة فيه ولا مراء ، فان أصاب الناقد فى نقده فقد أحسن الى نفسه والى الناس ، وان أخطأ فسيجد من الناس من يدله على موضع الخطأ فيه ويرشده الى مكان الصواب منه ، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ حتى يستقيم له الصواب كله

فان أبينا عليه أن ينتقد إلا اذا كان كفؤاً فى علمه ومخلصاً فى عمله كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس فقد أبينا عليه أن يخط سطراً واحداً فى الانتقاد ، وقضينا على ذهنه بالجمود والموت ،

لانا لا نعرف لهاتين الصفتين حدوداً معينة واضحة ، فكل ناقد يزعمهما لنفسه ، وكل منتقَد عليه يجرد ناقده منهما ، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالاخلاص المجرد فى عمله فيسمحَ به لجماعة الناقدين !

على أن الناقد الناقم لا تمنعه نقمته من أن يكون مصيباً فى بعض مايقول ، لأنه لم يأخذ على نفسه عهداً أن يختلق جميع المآخذ التى يأخذها وألا يكتب إلا الباطل والمحال ، وانما هو رجل عياب بالحق وبالباطل فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ الى السيئات المختلقة ، ولقد كُتب أول نقد فى التاريخ بمداد الضغينة والحقد ، فقد كانت توجد فى عهد اليونان القديم طائفة من الشعراء يجوبون البلاد ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية فى الأسواق والمجتمعات وبين أيدى الأمراء والعظماء فيكرمهم الناس ويجلونهم إجلالاً عظيماً ويجزلون لهم العطايا والهبات فنفِس عليهم مكانتَهم هذه جماعةٌ من معاصريهم من الذين لا يطوفون فى البلاد طوافهم ، ولا يحظون عند الملوك والعظماء حظوتهم ، فأخذوا يعيبونهم ويكتبون الكتب فى نقد حركاتهم وأصواتهم ومعانى أشعارهم وأساليبها ، وكان هذا أولَ عهد العالم بالنقد ، والفضل فى ذلك للضغينة والحقد ، فلرذيلة الحقد

الفصل الاول فى وجود الانتقاد وبزوغ شمسه المنيرة

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه فى مثل هذا الموضع رأياً صائباً ، لا بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه — متى رزق حظاً من سلامة الذوق واستقامة الفهم — أصح من رأى الاديب المتكلف الذى يتعمل النقد تعملاً ، ويتعمق التعمق كله فى التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنها ، ورب ابتسامة أو تقطيبة يمران بوجه السامع العامى عفواً أنفع للأديب حين يراهما وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه من مجلد ضخم يكتبه عالم مضطلع بالأدب واللغة فى نقد شعره أو نثره ، واذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها خاصتها وعامتها فلمَ لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلماً كان أو جاهلا أن يُدلىَ برأيه فى استحسان ما يستحسن من كلامه واستهجان ما يستهجن منه

وهل رَفع العظماء من رجال الأدب الى مواقف عظمتهم وسَجل لهم أسماءهم فى صحف المجد الا منزلتهم التى نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة والمكانة التى نالوها بين عامتها ودهمائها

وبعد فلا يتبرم بالنقد ولا يضيق به ذرعاً إلا الغبى الأبله الذى لا يبالى أن يفهم الناس سيئاته بينهم وبين أنفسهم ، ويزعجه كل الازعاج

أن يتحدثوا بها فى مجامعهم؛ ولا فرق بين فهمهم إياها وحديثهم عنها ، أو الجبانُ المستطار الذى يخاف من الوهم ويَفْرق من رؤية الاشباح ، ولو رجع الى أناته وزويته لعلم ان النقد ان كان صواباً فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها ، أو خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته منه ، لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا أسراهم ، يأمرونهم بالباطل فيذعنون ، ويدعونهم الى المحال فيتبعون ، ولئن استطاع أحد أن يخدع أحداً فى كل شىء فانه لا يستطيع أن يخدعه فى شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه ، ولو أن الأصمعى وأبا عبيدة وأبا زيد والمبرد والجاحظ والقالى وقدامة وابن قتيبة والآمدى وأبا هلال والجرجانى بُعثوا فى هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقى مثلا لما كرهوها ، أو يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من نثر « فلان » لما أحبوها ، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل اليها ، فهى تختفى حيناً أو تتنكر أو تتراءى فى ثوب غير ثوبها ولكنها لا تمحى ولا تزول

فلتنطلق ألسنة الناقدين بما شاءت ، ولتتسع لها صدور المنتقَدين ما استطاعت ، فقد حرمنا الحرية فى كل شأن من شؤون حياتنا فلا أقل من أن نتمتع بحرية النظر والتفكير

يوم العيد

أفضلُ ما سمعت فى باب المروءة والاحسان ان امرأةً بائسة فى باريس وقفت ليلة عيد من الاعياد بحانوت تماثيلَ يطرقه الناس فى تلك الليلة لابتياع اللُعب لاطفالهم الصغار فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات فى حسنه وجماله فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيما لا لانها غريرة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الاطفالَ الصغار بل لانها كانت تنظر اليه بعين ولدها الصغير الذى تركته فى منزلها ينتظر عودتها اليه بلُعبة العيد كما وعدتْه ،فاخذتْ تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالى به مغالاة شديدة حتى علمتْ ان يدها لا تستطيع الوصول الى ثمنه وانها لا تستطيع العودةَ بدونه فساقتْها الضرورة التى لا يقدرها قدرها الا من يحمل بين جنبيه قلباً كقلب الام وفؤاد مستطاراً كفؤادها الى ان تمد يدها خفية الى التمثال فتسرقه من حيث تظن ان الرجل لا يراها ولا يشعر بمكانها ، ثم رجعتْ أدراجها وقلبها يخفق فى آن واحد خفقتين

مختلفين ، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها ، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التى ستقدمها بعد لحظات قليلة الى ولدها ، وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدّة النظر بحيث لا تفوته معرفة مايدور حول حانوته فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع اقدامها حتى عرف منزلها ، ثم تركها وشأنها وذهب الى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها وصعدوا جميعاً الى الغرفة التي تسكنها ففاجأوها جالسة بين يدى ولدها تنظر اليه فرحه وابتهاجه بتمثاله نظراتِ الغبطة والسرور ، فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده فصرخ الولد صرخة عظمى لا على التمثال الذى انتزع منه بل على امه المرتعدة بين يديه ، وكانت أول كلمة نطق بها وهو جاث بين يدى الرجل : رحمتك بأمى يا مولاى ! وظل يبكى بكاء شديداً ، فجمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر وأطرق اطراقاً طويلا وإنه لكذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة باشراق فجر العيد فانتفض انتفاضة شديدة ، وعظم عليه ان يترك هذه الأسرة الصغيرة حزينة منكوبة فى اليوم الذى يفرح فيه الناس جميعاً ، فالتفت الى الجنديين وقال لهما انى أخطأت فى اتهام هذه المرأة فانى لا أبيع هذا النوع من التماثيل ، فانصرفا لشأنهما ، والتفت هو الى الولد فاستغفره ذنبه اليه والى أمه ، ثم مشى الى الأم فاعتذر

اليها عن خشونته وشدته، فشكرت له فضله ومروءته وجبينها يرفضّ عرقاً حياءً من فعلتها، ولم يفارقهما حتى أسدى اليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان

لا تأتى ليلة العيد حتى يطلع فى سمائها نجمان مختلفان، نجم سعود ونجم نحوس، أما الاول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأردية والحلل ولأولادهم اللعب والتماثيل ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب ثم ناموا ليلتهم نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الاحلام الجميلة حول أسرتهم تطاير الحمائم البيضاء حول المروج الخضراء، وأما الثانى فللاشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضى يئنون فى فراشهم أنيناً يتصدع له القلب ويذوب له الصخر حزناً على أولادهم الواقفين بين أيديهم يسألونهم بألسنتهم أو بأعينهم ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون به أندادهم، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم، فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها

فهل لاولئك السعداء ان يمدوا الى هؤلاء الاشقياء يد البر والمعروف ويفيضوا عليهم فى ذلك اليوم السعيد النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لانفسهم فى باب المروءة والاحسان ما سُجل لصاحب حانوت التماثيل!

ان رجلا يؤمن بالله ورسله وآياته وكتبه ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق بالرحمة والحنان لا يستطيع أن يملك عينه من البكاء ولا قلبه من الخفقان عندما يري في يوم العيد في طريقه الى معبده أو منصرَفه من زياراته طفلة مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين تحاول ان تتواري وراء الأسوار والجدران خجلا من أترابها وأندادها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها ورثاثة ثوبها وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن فلا يجد بداً من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها وعلى بؤسها ومتربتها لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازى ذرة واحدة من السعادة التى يشعر بها فى أعماق قلبه عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترقرقة فى عينيها

حسبُ البؤساء من محن الدهر وصروفه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم فى سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة فى كل عام مرة أو مرتين

من الشيوخ الى الشبان

لا نستطيع أن ننكر عليكم معشر الابناء أن شبابكم أعظم قوة ونشاطاً وأبعد همة وأقوى عزيمة من شيخوختنا ، وان أيدينا الشاحبة المعروقة لا تستطيع ان تصل إلى ما تصل اليه أيديكم الفتية المقتدرة ، وأن آراءكم وافكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التى تتلون بها شبوبيتكم أكثر حدة وحرارة وأبعد غوراً وعمقاً من آرائنا وتصوراتنا ، ولكن الذى ننكره عليكم ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا واحتقاركم لنا ورميكم إيانا بالجمود مرة والخرف أخرى كلما اختلفنا معكم فى شأن من الشؤون ، كما اننا ننعى عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بانفسكم ذلك الاعتداد العظيم الذى يخيل اليكم معه ان هذه الالوان الجميلة التى تتلون بها حياتكم الحاضرة انما هى خاصة بكم ووقف عليكم ، لم تمر بعصر غير عصركم ، ولم يزه بها شباب غير شبابكم ، وانكم أنتم أصحاب الفضل الاول فى ابتكارها وافتراع عُذرتها ، ولو أنكم استطعتم أن تحملوا أنفسكم على الرويّة والاناة

وأن تنتقلوا بأنظاركم من الحاضر الى الماضى وإن لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من طبيعته لعلمتم أن هذا العهد الذى يمر بكم اليوم والذى تفاخرون ننابه وتدلون علينا بأحلامه وأمانيه وتصوراته وخيالاته قدمر بنا مثله فى زماننا ،فقد كان لنا شباب مثل شبابكم نتصور فيه كما تتصورن ،ونفكر كما تفكرون ، ونردد فى انفسنا واحاديثنا وكتاباتنا جميع هذه الآراء والأفكار التى ترددونها اليوم حتى انطوى ذلك العهد وزالت معالمه وهدأت على أثره تلك الثورة النفسية الهائلة التى كانت تعترك بين جوانحنا ودخلنا غمار الحياة الحقيقية حياة الجد والعمل والنظر والتأمل والخبرة والتجربة فاستطعنا أن نرجع الى نفوسنا ،ونثوب الى رشدنا ،وان نهبط بهدوء وسكون الى أعماق قلوبنا ونستعرض تلك الآراء والافكار والاحلام والآمال بامعان وتدقيق فاستطعنا ان نميز صالحها من فاسدها ، وصادقها من كاذبها ،ومعقولها من موهومها،وأن نقلّب الاشياء على جميع وجوهها ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح ونوازن بين هذه وتلك، فاخذنا بما أربت حسناته على سيآته ، واطرحنا ما زادت سيآته على حسناته ، فلا فضل لكم فى الحقيقة فى هذا الذى تزعمون أن لكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعاً ، إنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته ،

ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر بشيء من ذلك ، وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة ، وأخص صفاته قصر النظر وسرعة الحكم والعجز عن احكام الصلة بين ادوار الزمن الثلاثة ماضيه وحاضره ومستقبله ، فهو لا يستطيع أن يتصور تصوراً ثابتاً متيناً أن الماضى أساس الحاضر ومنبع وجوده ، لا يشرق إلا من مطلعه ، ولا ينبت إلا فى تربته ، وان المستقبل بيد الطبيعة القاسية وقوانينها الصارمة ؛ وليس اقرب اليه من أن يتصور أن فى استطاعته أن يمحو بيده فى لحظة واحدة وجه الكون بارضه وسمائه ثم يخلقه خلقاً جديداً على الصورة التى يريدها ويتصورها ، وان فى إمكانه أن يحيل الترب أمواها والأمواه ترابا وان يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع إلا بارادته وان يرغمها متى أراد أن تمزق حجاب الليل وتبرز في سمائه ، ولا يزال يتخبط فى أمثال هذه التصورات والأحلام التى لا فائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطلع عليه أول طليعة من طلائع الشيخوخة فتهدأ ثورته ، وتفتر حدته ، ثم لا يلبث ان يسقط جاثياً بين يدى القوة الالهية والقوى الطبيعية معترفاً بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة هاتفاً : إن للكون إلهاً لا أستطيع محادّته وللطبيعة سنّةً لا أستطيع تبديلها

كنا نفكر كثيراً فى شأن المرأة كما تفكرون اليوم ، ولا نجد حديثاً ألذ ولا اطرب من الحديث عنها ، وكنا لشدة اعجابنا بها واهتمامنا العظيم بارضائها وتدليلها والوقوع من نفسها موقعاً جميلا ندافع عنها ضد أنفسنا ونطالب لها من النفوذ والسيطرة علينا اكثر مما تطلبه لنفسها ونتمنى بجدعِ الانف لو أننا رأيناها متمتعةً بالحرية الى أقصى حدودها فتتبرج كيف تشاء ، وتُسفر كما تريد ، وتجلس الى الرجل جنباً لجنب فى المجتمعات العامة والخاصة دون ان يعارضها معارض ، أو يكدر عليها صفوها مكدر ، بل كنا نذهب فى مجاملتها ومحاسنتها الى اكثر من ذلك ، فكنا نغتفر لها سيآتها الادبية ونسميها سقطات أى هفوات فردية لا أهمية لها ونغريها بمحاسبة زوجها حساباً شديداً على خيانته لها ومقابلة فعلاته بمثلها لاننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه ونقول لها ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها ، وكنا نظن أن هذه الآراء آراء حقيقية راسخة فى نفوسنا صادرة من أعماق قلوبنا ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين فى أمرها وانها آراء الشباب وخواطره وألاعيبه ودعاباته وأحلامه وتصوراته ، ولا يثقل على الشاب فى مفتتح حياته شيء مثل ذلك الحجاب المسبل على وجه المرأة

وذلك الجدار القائم بينها وبينه

وكنا نبتهج بكل جديد كما تبتهجون ، وننفر من كل قديم كما تنفرون ، ونعد الاول آية الآيات مهما سخف واستبرد ، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته وعظم قدره ، لا لأننا وازنا بينهما وفاضلنا بين مزاياهما فحكمنا عليهما ، بل لأننا كنا قريبي عهد بزمن الطفولة والطفل سريع الملل كثير السآمة لا يصبر على لعبته أكثر من يوم واحد حتى يملها فيكسرها ويستبدل منها غيرها

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به لا نكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها أعمالنا في الحياة ، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف أنواعها وألوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط « الفلم » صوره كأن فضاء حياتنا معمل لتجاريب الحياة واختباراتها

وكان العارف منا بلغة أجنبية لا يلبث ان يفتتن بها وبأصحابها افتتاناً شديداً ربما حمله على احتقار لغته وتاريخها ، فيترفع عن ذكر رجالها وعظمائها في أحاديثه واستشهاداته ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان أحد غيره لا لأنه يفهمهم أو يفهم غيرهم بل لأنه كان بسيطاً غريراً يحتقر كل ما في يده ويستعظم كل ما في يد غيره

ولم نعرف إلا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين في جميع هذه التصورات والأفكار وأنها لم تكن عقائد راسخة في نفوسنا

بل أشباحاً وصوراً نتراءى في سماء حياتنا فنعجب بها ونستطير فرحاً وسروراً بجمال منظرها وبهجة ألوانها فأصبحنا معتدلين فى آرائنا متئدين فى أحكامنا، نحب حرية المرأة ولكنا نكره فسقها وفجورها، ونأخذ مواد المدنية والرقى من الامم المتمدينة ولكنا لا نقلدها، ونحب أدب الغربيين وعلمهم ونعجب بأدبائهم وعلمائهم ولكنا لا نحتقر من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا

نحن لا نطالب منكم معشر الأبناء وأنتم فى ثورة الشباب ونشوته ان تكونوا معتدلين متئدين في أحكامكم وتصوراتكم أو هادئين فى مطامعكم وآمالكم فليس من الرأى أن نطلب عندكم ما لم نكن نطلبه عند أنفسنا، ولكنّ أمراً واحداً كنا نحرص عليه في عهدنا أشد الحرص هو الذى نطلب اليكم أن تحرصوا عليه مثلنا وتضنّوا به ضنّنا

كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آبائنا وأجدادنا وأوسع منهم علماً وأقوى ادراكاً وربما اعتقدنا فى الكثير منهم كما تعتقدون فينا اليوم انهم جاهلون أو مخرفون أو متأخرون أو جامدون إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها، فلا نلقبهم بلقب من هذه الألقاب التى تلقبوننا بها ولا نذكرهم فى حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنغص عليهم ما قدر لهم ان يقضوه بيننا من

أيام حياتهم ، وكان شأننا معهم في برهم واكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم شأن خالد بن عبد الله القسري أمير العراق إذ كان مسيحياً فأسلم وحسن اسلامه ، وكان أبوه لا يزال على دينه فطلب اليه أن يبنى له بيعةً فى قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية فبناها له كما أراد ولم يَنْعَ عليه شأناً من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب الى ربه

ذلك ما نضرع اليكم فيه ان تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لآبائنا واجدادنا ، واذكروا ان سيأتى عليكم ذلك اليوم الذى أتى علينا وانكم ستكرهون فيه ان يعاملكم أبناؤكم واحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم ، فاتقوا الله فينا وفي شيخوختنا فنحن آباؤكم الذين ولدناكم ، واساتذكم الذين ربيناكم ، ومن اكبر العار عليكم وعلى تاريخكم ان تسبوا اساتذكم وآباءكم وأن ترموهم فى وجوههم بالجهل والجمود وماهم بجاهلين ولا جامدين ، ولكنهم شيوخ عاجزون

الموتى

« مترجمة »

دقت أجراس المساء تنعى اليوم الراحل، وتندب جماله الزائل، وأخذت قطعان الماشية تعود من مراعيها إلى حظائرها، ومشى وراءها رعاتها يهشون عليها بعصيهم لا يريدون بها شراً ولا أذى لانهم يحبونها وتحبهم بل يخافون عليها الضلال فهم يهدونها الطريق، ومد الظلام رواقه الأسود على جسم الطبيعة المنبسطة كأنما ظن أنها تنام كما ينام البشر فهو يقيها برد الليل وغائلته، وساد سكون رهيب في تلك الأنحاء فلا يسمعُ إلا صوتُ البلبل يشكر للقمر ما أهدي إلى جناحيه من أشعة متلألئة ونعيبُ البوم يمد صوته بالشكوى إلى الله تعالى في سمائه، وما شكاته إلا أن بعض السائحين يطأون أرضه وينتهكون حرمة خرباته المقدسة، وهنالك تحت ظلال الأشجار الضخمة اليابسة رقد أسلافُ سكان تلك المزرعة تحت أعماق الأرض رقدة طويلة بل أكثر من

طويلة لأنها لا نهاية لها ، فلا نسمات الصباح الباردة ، ولا تغريد الطيور الصادحة ، ولا صياح الديكة ، ولا رنين الأجراس ، ولا هتاف الرعاة ، يوقظهم من رقدتهم هذه

أسفي عليهم لقد أمسوا ولا نيران توقد في أكواخهم ، ولا زوجات صالحات يذهبن ويجئن في تهيئة طعام عشائهم ، ولا صبية صغاراً يستقبلونهم عند عودتهم ليقبلوهم ويستقبلوا قبلاتهم ، أولئك الرقود الهامدون كانوا بالأمس أشداء أقوياء ، تمد السنابل أعناقها خاضعة لمناجلهم ، ويئن ظهر الأرض وبطنها تحت وطأة محاريثهم ، وترتعد جذوع الأشجار الضخمة فرقاً من ضربات فؤوسهم

أولئك الوجومُ الصامتون كانوا بالأمس فرحين مستبشرين يرقصون ويغنون ويجدون السعادة في كل شيء يحيط بهم ، فيطربون لوقع حوافر ماشيتهم على الحصباء كأنما يسمعون قيثارة مطربة ، ويجدون في ضجعتهم فوق الأعشاب اليابسة الراحةَ التي يجدها أصحاب الأسرة فوق مهادهم الوثير ، ويشعرون في تناولهم اللقمة الجافة السوداء بعد الجوع باللذة التي يشعر بها الأغنياء عند تناولهم ألوان الطعام الشهي حول موائدهم ، ويغترفون بأكفهم الماء من الأنهر والخلجان فيتلذذون بارتشافه كأنما يتناولون صافية

الصّهباء فى كؤس البلور والذهب

أولئك الخاملون المغمورون الذين لم تُنصب لهم التماثيل ، ولم ترفع فوق قبورهم القباب كانوا فى حياتهم شرفاء عظماء لانهم كانوا متحابين متآخين، لا يحسد فقيرهم غنيهم ولا يبغى قويهم على ضعيفهم ، ولا يحقدون ولا يغدرون ، ولايخافون شيئاً حتى الموت ولا يعبدون إلهاً الا الله

كذلك كانوا بالامس،واليوم طواهم الرمس،فرحمة الله عليهم يوم كانوا على ظهر الارض و بعد ما اصبحوا في بطنها

فليجثُ فوق رمال هـذه القبور المبعثرة وبين صفائحها المتهدمة المتساقطة أربابُ المطامع فى الحياة وطلاب المجد والعظمة خاشعين مستكينين خافضى رءوسهم اجلالا واعظاماً ، وليمسكوا قليلاعن الادلال بعزهم وجاههم والمكاثرة بفضتهم وذهبهم،وليخفوا فى اعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترقرقة على شفاههم، وليعلموا ان طريق المجد والعظمة التى يسيرون فيها وان كانت مخضرة جميلة مفروشة بالاعشاب محفوفة بالازهار الأريجة فانها تؤدى في نهايتها الى هذا المصير الذى صار اليه هؤلاء المقبورون

أيها الناعمون فى عيشهم، المدلون بعزهم وجاههم، المفتخرون بقوتهم وجمالهم ، لا تحتقروا هؤلاء المقبورين المساكين ان رأيتم

أجداثهم مشعثة بالية وقبابهم متهدمة خاوية ، ولم تروا أسماءهم منقوشة بأجمل الالوان وازهاها على صفائح قبورهم ، واصغوا قليلا تسمعوا آيات مدحهم والثناء عليهم ترددها الجداول والغدران والحقول والمروج والطيور المغردة فوق أعالى الاشجار، والسوائم الهائمة على ضفاف الانهار ، فهم أصحاب اليد التى رصعت التاج للملك وصنعت السيف للقائد ونسجت المسوح للراهب وبنت القصور للامراء وصاغت الحلى للاميرات وغرست العُشب للسائمة ووضعت الحب للطائر وهيأت للاحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم طعامَهم وشرابهم ودثارهم ومهادهم

أيها القوم العظماء : لا تُخلد التماثيلُ المنصوبة غير ذكرى ناحتيها ولا تَطمس السطور الذهبية المنقوشة فوق صفائح القبور سطورَ السيئات التى يخطها التاريخ في صفحاته، ولا تَسمع آذان الموت الصماء نغمات الملق المترددة فى اناشيد الرثاء

ربّ يد تحت هذه الارض لو أتيح لها الحظ في حياتها لكانت يد العازف الذى يشنف الآذان، أو يد البطل الذي يهز العروش ويزعزع التيجان، أو يد الشاعر الذى يثير الاشجان، ويبعث الى القلوب السرور والاحزان ، ورب قلب فى هذه الحفائر المظلمة لو عاش في جو غير هذا الجو وعالم غير هذا العالم لكان قلب ملك

عظيم مملوء بالآمال العظام ، والاماني الجسام ، أو قلب زعيم جريء يحاسب الظالمين على ظلمهم، ويذود النوم عن اجفانهم ؛ أو قلب نائب كبير يستهوي ببلاغته القلوب ويسترعي الاسماع ، فتدوي له بالتصفيق قاعة مجلس النواب أو قاعة مجلس الشيوخ

كم من لؤلؤة لم تعثر يد الغواص بها فظلت دفينة بين صدفتيها، وكم من زهرة أريجة لم تتفتح حتى هبت عليها رياح الصحراء المحرقة فاذبلتها، وكم من ماسة وضاءة عجز المعدنون عن استخلاصها من معدنها فانطفأ نورها في منجم الفحم المظلم ، وكم من قريحة وقادة لم تصقلها العلوم والتجاريب فعاشت مغفلة مهملة حتى انطفأت ، ولو أنها صقلتها لغيرت وجه الكون وبدلت الارض غير الارض

نعم كان بين هؤلاء القرويين المقبورين من كان له قلب كقلب (همبدن) إلا أن التاريخ لا يعرفه، ومن كان له لسان كلسان (ملتن) إلا أنه لم ينصب له تمثال، ومن كانت له همة كهمة (كرومويل) إلا أنه لم يقد الجيوش ، ولكنهم عاشوا في هذه الفلوات المنقطعة عن العلم والحضارة فدفن الجهل مواهبهم ، وأخمد الفقر نار ذكائهم وفهمهم ، فمروا بهذه الدنيا لم يشعر بهم أحد ، ثم ماتوا ولم يذكرهم أحد

هنيئاً لهم جهلهم وخمولهم ، فلو انهم كانوا عظماء لقضوا أيام

حياتهم يسفكون الدماء ويمزقون الاشلاء ويغتالون حقوق الضعفاء سعياً وراء أغراضهم ومطامعهم ، لا بل إنهم كانوا عظماء ولكنهم بريئون من آثام العظمة وجرائمها

رحمة الله عليهم لقد ذهبوا ولم يبق لهم من بعدهم مما يدل عليهم سوى حجر قديم ملقى فى طريق مقبرتهم قد كتب عليه بخط سقيم هذا البيت البسيط من الشعر

ايها المار فى هذا المكان احترم تربته ، ولا تطأ بقدميك رفات الموتى

هذا كل ما طمعوا فيه من شؤون الحياة بعد موتهم ، لم يطلبوا تمثالا يقام لهم ، ولا قبة ترفع فوق أضرحتهم ، ولا صفحة من صفحات التاريخ تخلد فيها أعمالهم ، بل لم يطلبوا طاقة زهر تؤنس مضجعهم ، ولا قطرة غيث تبل ثراهم ، فما كان أقنعهم وأزهدهم

الزهرة الذابلة

ورد إليّ من حضرة صاحب التوقيع الكتاب الآتى

أنا تلميذ فى السابعة عشرة من عمرى تحصلت على شهادة الدراسة الابتدائية ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أُفلح غير أنى عزمت على الكد للعام المقبل وما دريت ما يخفى الغيب فى سره حتى فوجئت بمرض «الحمى» العضال الذي ضعضعنى وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابنى «الصمم» الكامل فضاعت بذلك آمالى وأظلمت الأرض فى وجهي فرأيت أن أستغيث بك لعلك تسدى إلى جميلك بكلمة تعزية من عندك وأنا أحق الناس بالعزاء والسلام

٦ يناير سنة ٩١٤ ر. م

لا أستطيع أن أعزيك عن مصابك يا بنى فهو فوق ما يحتمل المتحمل ويطيق الجلد الصبور، ولو أننى حاولت ذلك منك لكذَبتك وغششتك، ولكن شأنى معك شأنَ أولئك الهازلين العابثين من المعزّين الذين يختلفون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبين والمرزوئين

ليقولوا للثاكل ولده « لقد قدمت بين يديك شفيعاً يشفع لك يوم حسابك بين يدى ربك » وللباكى أباه « ما مات من خلف مثلك » وللباكى أخاه « ان فى الباقى عزاء عن الماضى » وللباكية زوجها « الشباب غض والرجال كثير » وللفاقد بصره « حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور بصيرتك » وللمحتضر المشرف « إن فى لقاء الله عوضاً عن لقاء الدنيا » ولمن حلت به نكبة مثل نكبتك « لقد كفاك الله بما ابتلاك سماعَ أقوال الكذب وكلمات السوء » كأنهم يحسبون أن الفواجع والرزايا صفقات تجارية إذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ووازن بين دخله وخرجه هان عليه هذا لذاك ، واغتفر ما فات لما هو آت ، ولا يعلمون أن الحزن على الذاهب المفقود انما هو زفرة من زفرات الحب أو نفثة من نفثات الوفاء ولا دخل للحساب والمعاوضة فى شىء من ذلك ، وأن أقسى الآباء قلباً وأصلبهم فؤاداً لو ساومه مساوم فى فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزائن الارض والسماء لكان رأيه فى ذلك رأى ابن الرومى فى قوله

وما سرنى أن بعتُه بثوابه ... ولو أنه التخليد فى جنة الخلد

وأن الأم تبكى وحيدها كما تبكى عاشر عشرة من أولادها، والصديقَ يبكى فراق صديقه وإن كثر أصدقاؤه فى كل محلة يحل

بها والزوجةَ تبكى زوجها وإن كان تحت كل نافذة من نوافذ منزلها خطيب يترقبها، وأن البائسَ المسكين الذي يعيش من دنياه في مثل جُحر الضب ضنكاو بؤساً يضن بحياته الضنّ كله اذا أحسّ بفراقها وإن علم أنه سينتقل منها إلى جنة عرضها السموات والأرض، فهم في الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم ويؤلمون نفوسهم فوق ألمها باحتقار أحزانهم وازدرائها وتصغير شأنها في أعينهم ويلقون في نفوسهم اليأس من أن يجدوا بجانب قلوبهم قلوباً تحسّ باحساسها وتشعر بشعورها من حيث يظنون أنهم يخففون آلامهم ويأخذونهم بنسيانها

وأعوذ بالله أن أكون يا بني من الكاذبين في تعزيتك أو الغاشين لك فيها، ولو أردتُ نفسي على ذلك لما استطعت، وكيف يستطيع أن يعزيك عن مصابك من لا يستطيع أن يعزى نفسه عن مصابه فيك. فلقد ترك كتابك هذا بين جنبي لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التي تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك، حتى صرتُ كأني ابتليتُ بما ابتليتَ به وكأن الذي أصابك من البلاء قد أصابني من دونك، فلقد انقطع عنك بفقد سمعك أيها البائس المسكين كلّ ما كان بينك وبين

الناس جميعاً من سبب وصلة ، فأصبحتَ وانت في دار الانس والاجتماع وبين ضوضاء الحياة وضجيجها كأنك تعيش من وحشتك وكآبتك فى مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم لا تأنس فيها بأحد ولا يأنس بك فيها أحد ، ولاترى بين يديك إلا نُصُباً ماثلة وتماثيل جامدة

تحسب العين انهم جدُّ أحياءٍ لهم بينهم إشارة خرس

ولا يرفّه عن نفسك فى ساعة من ساعات ضيقك وضجرك نغمة غناء ، ولا رنةُ حداء ، ولا خرير نهر ، ولا تغريد طير ، ولا حفيف شجر ، ولا زفيف ريح ، ولا ثُغاء شاة ، ولا نقيق ضفدع ، ولا صرير جندب ، سواء لديك ليلك ونهارك ، وصبحك ومساؤك ، ويقظتك ومنامك ، فان فررت من وحشتك هذه الى مجتمع من مجتمعات العامة فجلست الى الناس ساعةً تتفرج(١) فيها مما بك لاتسمع شيئاً مما يقولون ولا يعنيهم ان يسمعوا شيئاً مما تقول ، فان قلبت نظرك فى وجوههم لتتسقّط حرفاً أو كلمة من حركات شفاههم او اشارات ايديهم انكروا عليك نظراتك وسخروا منك فى أنفسهم ، لا بل ربما صارحوك بكلمتهم التى يضمرونها فى انفسهم من حيث لا تعلم ، فان رأوا منك ذلك ورأوا أنك تقتضب

(١) طلب الفرجة والراحة

الاحاديث بينهم اقتضاباً وتذهب منها فى أودية غيرأوديتهم وانك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على مقياس أسماعهم فتعلو به عليها أو تنزل به دونها وانك تبتسم فى موضع التقطيب وتقطّب فى موضع الابتسام أصبحوا ينظرون اليك بتلك العين التى ينظرون بها الى الاطفال الصغار والبله الاغرار ، فان ألممت بسرّ نظرتهم هذه اليك ألمّ بك من الحزن والهم ما لا طاقة لمثلك في سنك وضعف مُنّتك باحتمال مثله وأصبحتَ ترتاب بكل نظرة تتجه اليك وكل ابتسامة تتراءى لك واعتادك سوء الظن بكل جالس يجلس اليك من أصدقائك وأقربائك وذوى رحمك ، بل من أبويك واخوتك ، فلا يكاد يسلم لك صديق أو يصفو لك حميم

فان فررت من الناس نجاة بنفسك من لؤمهم وقسوتهم فررت الى خلوة موحشة قاتمة تتراءى لك فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنتَ بين حاضرك وماضيك وقارنت بين ما كنت ترجو لنفسك فى أيامك الاولى وما انتهى اليك أمرك فى أيامك الاخرى ،فلا تنفعك خلوة ، ولا يؤنسك اجتماع

وأخوفُ ما أخاف عليك إن استمر بك هذا الشأن — ولا أسأل الله لك دوامه — وظللتَ تنطق ولا تسمع ،وتقول ولا تَفهم ما يقال ، أن تصبح في يوم من أيامك لا سامعاً ولا ناطقاً،

فالسماع مادة النطق التى يستمد منها قوته وحياته ، ومن لا يسمع لا يحسن النطق ، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير

وكثير عليك يا بنى وأنت زهرة يانعة فى روض الشباب وابتسامة لامعة فى ثغر الآمال وفجر مشرق فى سماء الحياة أن تعلوَ هذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربى الحياة فلا تلبث فيها إلا قليلاً حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك ثم يعدو بك عدو الظليم المذعور حتى يلقيك على هذه الصخرة الصماء

فوا رحمتاه لك يا بنى مما بك اليوم ومما يستقبلك به الدهر غداً ، فأسأل الله تعالى لك أن يرفع عنك محنتك ، أو يمنحك عيناً ثرّة من الدمع لا ينضب معينها ، تسكب منها صباح كل يوم ومسائه سَجلاً على فؤادك الملتاع فتبرد غلته ، وتَفثأ لوعته ، فالدموع هى الرحمة العامة التى يلجأ اليها المنكوبون والمحزونون يوم لا يجدون لانفسهم فى مذهب من مذاهب الارض ولا فى شِعب من شعاب السماء ناصراً ولا معيناً والسلام عليك من الراثى لك الباكى عليك ورحمة الله

الوجهاء

جرى بيني وبين احد الوجهاء المصريين الحديث الآتي

الكاتب — ما هذه الطبقة التي تكسو وجهك فتحجب منه ما يحجب صفحةَ السماء من السحب السوداء

الوجيه — إن بين جنبيَّ همّاً يعتلج، وكمداً يذهب باللب ويطير بشظايا القلب، وناراً من الحزن متأججة مضطرمةً دخانُها هذا الذي تراه

الكاتب — أحقٌّ ما تقول وأنت الرجل السعيد بحظه، المغتبط بعيشه، قصرُ غمدان، وخَورْنَق النعمان، وحورٌ وولدان، وظل ظليل، ونسيم عليل، وخزائن تموج بالذهب، موج التنور باللهب، ذلك الى ماأسبغ الله عليك من صحة البدن، وسلامة الحواس، وأمدك به من الجاه العريض، والكلمة النافذة، والشفاعة المقبولة، فليت شعرى ما شَكاتك بعد ذلك

الوجيه - أشكو الفقر الباطن فى الغنى الظاهر، والشقاء المقبل فى السعد المدبر، وإنى لأرى فى السماء غمامة دكناء توشك

أن تنفجر بالصاعقة الكبرى ،والكارثة العظمى

الكاتب — ما كنت أحسب أن الشقاء يمر لك ببال بعدما أعطاك الدهر عهداً مكتوباً بتلك الاحرف الذهبية ألا يسدد سهمه اليك، ولا يدور دورتَه عليك

الوجيه — متى كان للدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد عليه ، فالناس في يده كالكرة ذات الالوان فى يد الصبى يديرها فترى الاسود فى مكان الابيض والابيض في موضع الاسود وكذلك بقية الالوان تعلو أسافلها و تسفل أعاليها،ودورة السعود والنحوس أسرع فى عمر الدهر من لمح الطرف،ولفتة الجيد

الكاتب — هل لك أن تحدثنى من أى منفذ نفذ الدهر اليك وما عهدتُك شارباً ولا عاهراً، ولا مقامراً ولا مستهتراً ،وما للدهر مدخلٌ يتسرب منه الى خزائن الاغنياء غير هذا المدخل

الوجيه — أين يُذهب بك أيها الصديق، وهل يؤتَى الاغنياء فى هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة الكاذبة ، وهل يَكُبُّ العظماءَ على وجوههم ويُلصق بالرَغام معاطسهم إلا الشغف بنظرة الأمير ، ولفتة الوزير ، وزورة المدير ، وأنت تعلم أن رجلا مثلى لا يمكن أن يكون له مطمع فى المجد الصحيح،فلستُ بصاحب علم فأفخرَ به ، ولا صاحب قلم فأمتَّ بما يمتّ به أصحاب

الاقلام من خدمة المجتمع الانساني وتهذيبه ، فلم يبق امامى غير هذا المجد الكاذب ، وهو مجد القربى من الحكام والعمال ، ولا سبيل اليه إلا ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قارون وكنوز ركفلر ، وقد أنفقت فوق الطاقة ووراء الفاقة فى بناء القصور نزلا للحكام ، وغرس البساتين منازهَ لهم ، وإعداد الفرش والآنية الثمينة لمآدبهم وولائمهم ، فلما نضب معين الذهب وعيَّت الارض ان تثمر فوق ماتثمر لجأتُ الى مصرف من المصارف فاثقلنى بالديون وأرهقنى بالطلب ، ففزعت منه الى آخر ، ثم الى آخر ، فكنت كناقش الشوكة بالشوكة ، أو غاسل الدم بالدم ، ولو كُشف لك من أمرى ما كُشف لى منه لعلمتَ أن جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار ، ودور وقصور ، لم يبق لى منه إلا تلك الخطوط السوداء المسطورة فى جرائد الصيارف ، وها أنذا اليوم طريد المصارف والغرماء ، وغريم القضاءين قضاء الارض وقضاء السماء

ذلك كل مايستفيد الوجيه من وجاهته قبحها الله وقبح كل ماتأتى به ، فلا تحسد الوجيه على مظهره الكاذب ، وزخرفه الباطل ، ولا تنفس عليه بؤسه الكامن ، وشقاءه الخفى ، فهو أتعس خلق الله وأكثرهم هما وأثقلهم مؤونة وأخسرهم حاضراً ومستقبلا ، يكون عنده من الضياع أو الدور جملة لا تثمر له من المال أكثر مما يسع ترفيه

نفسه وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجيها ، والوجاهة كلمة صغيرة معناها في نظر الناس كبير كأنما هى عندهم من جوامع الكلم ، فالوجيه فى اصطلاحهم هو الرجل الذى يمد لكل غريب نزل بلدته مائدة ، ويرضخ بالعطاء لكل عابر سبيل مرّ بحيّه ، ويشترك فى جميع الجرائد والمجلات وان كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ويبتاع تذاكر حفلات جميع الجمعيات الخيرية على اختلاف مذاهبها وأنواعها وإن كان لا ينتفع بواحدة منها ، ويشترك فى جمعية الرفق بالحيوان ، وجمعيات الرفق بالانسان ، ويبتاع المؤلفات الحديثة التى يكلفه المدير أو المأمور بابتياعها وان كان عمدة أو شيخ بلد وكان الكتابُ فى علم الفلسفة ، ولا تتم شروط الوجاهة عنده فيأخذ منها بالحظ الأوفر إلا إذا بذل للحكومة المعونة الكبرى فى مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب وأمثال تلك الضرائب التى تضربها الحكومة علينا ضرب الجزية على أهل الذمة فى سالف الازمان ، والتى لا فرق بينها وبين خراج الأطيان وعشور النخيل وعوائد الاملاك

الكاتب — انها تبرعات ومبرات لا اجبار فيها ولا الزام ، فالحكومة لا تُشهر عليكم سلاحاً ، ولا تعد لكم سجناً ، وكل ما في الأمر أن رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم إلى هذه الأعمال

الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة

الوجيه — لاأزال أكرر القول أن رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست فى شرع ولا قانون ، والوجيه فى الحقيقة كالعبد فى اصطلاح علماء التوحيد مجبور باطناً مختار ظاهراً ، أما الظاهر فهو ما ترونه من اقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف فى الطلب وشكر المحسن على احسانه ، وأما الباطن فهو أن الوجيه منا كما علمت مفلس من جميع أنواع المجد إلا مجد الزلفى عند الحكام ، والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ولا يفتحون له باب القربى منهم إلا على مقدار مايفتح من أبواب خزائنه بين أيديهم ، فمنا من يزوره المدير أو المفتش لانه وهاب الآلاف ، أو المأمور لانه من أصحاب المئات ، ومن لا يزوره أحد منهم ولا ينهض له اذا أقبل ولا يشيعه إذا انصرف لانه لا يلبى دعوة ولا يحضر مجمعاً ولا يكتب رقماً فى قائمة اكتتاب ، فلا يلبث أن يَسلس قيادُه ، ويصحب عنادُه ، هذا هو الاستبداد الخفى الذي ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تشهر عليهم سلاحاً أو تعدّ لهم سجناً ، ولكنها تبلغ به فى شهر ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و « الويركو » و « البطانطا »

والعوائد الشخصية فى عام ، ولقد راجعت صحيفة حسابى فى هذا العام عام الازمة والجدب فوجدت إنى دفعت خراج الاطيان مرة أخرى

الكاتب — هب أن الامر صحيح كما تقول فالحكومة لاتودع هذا المال خزائنها ولا تقضى به أغراضها وانما تنفقه فيما ينفع الامة فى تربيتها وتهذيبها وتقدمها وارتقائها

الوجيه — ذلك مايجب أن تنفق عليه الحكومة من خزائنها التى تملأها من أموال الامة لهذه الاغراض التى تذكرها ، ولكنها تضن بمال هى فى حاجة اليه لاصلاح السودان وبناء العمائر وتشييد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصاً الاجانب منهم وإقرار عيون السياح الاوروبيين بالمناظر البهجة والآثار الجميلة فلاترى لها بداً من حمل تلك الحمالات على أعناقنا بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر إلى ما نتكبده فى هذا السبيل مما يذيب الشحم ، ويعرق العظم ، وليتها كانت تتدرج فى الطلب وترتشف المال ارتشافاً ولا تعبه عباً فتدرك فى ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باستبدادها وإرهاقها ، فقد حكى عن أحد رؤسائها أنه علم أن أحد المديرين سلب أهالى مديريته المال دفعة واحدة وأنهم ضاقوا به ذرعاً فأحضره فى مجلسه وأمر أن تنزع من لحيته

شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا احتفل به ثم أمر أن تنتزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتألم ، فقال له هكذا يجب أن يكون أخذ الاموال من الرعيـة متفرقا تحتمله ، لا مجتمعاً تتألم له

الكاتب — حسبك من ذلك ثواب الله وأجره على إحسانك وبذلك المال فى سبيله وللآخرة خير وأبقى

الوجيه — من أين يأتينى الثواب والاجر وهل يثاب المرء إلا على نيته وإخلاصه فى عمله ، واني أعترف لك عنى وعن جميع الوجهاء أمثالى بما عرفتُ من أحوالهم ، ومارست من طباعهم ، اننا لا نريد من بذل مانبذل إلا رضا الحاكم والتودداليه وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة وقضاء المآرب والحاجات أخرى ، ووالله لقدأفسد علينا هؤلاء القوم بخطتهم هذه غرائزنا وسجايانا وعودونا من الرياء فى الاحسان والنفاق فى المعاملة خطة قست معها قلوبنا ، واستحجرت أفئدتنا ، حتي أن أحدنا لا يكاد يحسن بالدرهم الواحد إلى جاره الفقير البائس إلا أمام قاضٍ فطن وشهود عـدول ، وحتى زهد فينا الفقراء ولوت المساكين وجوهها عن أبوابنا ، وجفانا ذوو الرحم والاقرباء ، وأصبحت قصورنا فى نظرهم قبوراً يستدرّون لها الرحمات ، لا يرجون منها

الصدقات ، وأقفرت « مضايفنا » إلا من عربدة المطربشين ورطانة المبرنطين ، فمن أين لثواب الله أن يعرف طريقنا عافاك الله

الكاتب — اتغضبك كلمة الحق إن قلتها لك أيها الصديق؟

الوجيه — قل ماتشاء فقد ملأ الهم مابين جوانحي فاستحجر قلبي حتى ما يغضبني حق ولا باطل

الكاتب — أعجب ما رأيت من أمرك فى حديثك معى أنك تعرف الحق وتتنكر له كانك لا تعرفه ، وتمد يدك إلى الصواب ثم تعجز عنه ، فقد زعمتَ أن مجد القربى من أولياء الامر مجد باطل ، ولقد أصبت فيما تقول فما شأنك به ومانهوضك اليه ومالك واللصوق بامر أنت تعلم قلة جدواه وسوء مغبته ، ولقد كان لك طريق مختصر الى المجد الصحيح لو كنتَ أكبر منك همة وأصح رأيا وأقوى عزيمة ، فمجد الكرم ليس بأقل شأناً من مجد السيف والقلم ، ولا أرى أنك كنت تنفق فى سبيله إلا بعض ما أنفقت في هذا المجد الكاذب ، وما كان يصيبك فى الاول من الشقاء ما أصابك فى الثانى ، فالكريم معان على أمره مبارك له فى عيشه متى صح له معنى الكرم وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه الى تفقد الضعفاء ، ومواساة الفقراء ، من حيث لا يبتغى على ذلك أجراً سوى ما وعد الله به المحسنين من

حسن المثوبة والاجر ورفع الذكر فى الآخرة والاولى ، ولكنكم بخلتم بأموال الامة عليها واحتجنتموها دونها وأبت لكم همتكم الضعيفة أن يكون لكم كما لامثالكم من أغنياء الامم الاخرى آثار فى بناء المدارس والملاجىء والمستشفيات تسمى بأسمائكم وتعد من أعمالكم ، فتنالون بها ماتريدون من مجد الدنيا والآخرة ، فعاقبكم الله على ذلك بأن سلط عليكم من يعبث بعقولكم ، ويلعب بأهوائكم ، ويرغمكم على الاحسان ارغاما من حيث يكون له الغنم ، وعليكم الغرم ، فلا ذكراً حصلتم ، ولا مالاً حفظتم ، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون

جرجى زيدان

لاأعلم أين تذهب نفس الانسان بعد موته ، ولا أين مكانها الذى تستقر فيه بعد فراق جسدها ، ولا ماهى الصلة التى تبقى بين المرء وبين الحياة الدنيا بعد رحيله عنها ، فان كان صحيحاً ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع أن يجد بين صخورها وصفائحها منفذا يشرف منه على هذه الدار فيسره ماترك وراءه فيها من ذكر جميل وثناء عاطر وسيرة صالحة ومجد باق فان نصيب جرجى زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك فى حياته الاولى من جليل الآثار وصالح الاعمال أوفر الانصبة وأجزلها

ماأنعم الله على عبده نعمة اسنى قيمة ولا أغلى جوهرا ولا أحسن أثرا من نعمة الاعتقاد بالجزاء الصالح على العمل الطيب ، فهو يعتقد انه مجزى على عمله مكافأٌ به مؤمنا كان أو ملحدا معترفا بنعيم الأخرة أو منكرا له ، فان كان الاولَ ساقه الى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد وحورها وولدانها ، ولؤلؤها ومرجانها ، وروحها وريحانها ، وان كان الثانيَ ساقه اليه شغفه بالذكر الجميل والسيرة

الصالحة والحياة الباقية فى ألسنة الاجيال وبطون التواريخ ، ولولا هاتان الجنتان جنةُ المؤمنين وجنةُ الملحدين ماجدّ فى هذه الحياة جادّ ولا عمل فيها عامل

إن ميدان الحياة الدنيا أضيق من أن يسع بين غايتيه العمل الصالح والجزاء عليه معاً، وكيف يسعهما والمرء لا يكاد يفرغ فى حياته من عمله الذى يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفىء ذُبالة حياته وتحترق فحمة شبابه حيث تموت فى قلبه لذة العظمة وتنضب فى فؤاده شهوة المجد فان فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعة من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها الى نفسه ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة، إما حياة الاجر، أو حياة الذكر

مات جرجى زيدان فنحن نبكيه جميعاً ، أما هو فيبتسم لبكائنا ويرى فى تفجعنا عليه والتياعنا لفراقه منظراً من أجمل المناظر وأبهاها، لأنه يعلم ان هذه الدموع التى ترسلها أجفاننا وراء نعشه أو فوق ضريحه إنما هى ألسنة ناطقة بحبه وإعظامه والاعتراف بفضله والثناء على عمله ، وأنها المدد الالهى النورانى الذى تُكتب به فى صحيفة تاريخه البيضاء آيات مجده الخالد وعظمته الباقية ، وذلك ما كان يريد أن يكون

مات جرجي زيدان فبكاه صديقه لأنه كان يحمدوده وإخاءه، وبكاه جاره لانه كان يجد فى جواره لذة الانس وجمال العشرة، وبكاه معتفيه لانه كان ينتفع بماله، وبكاه صنيعته لانه كان ينتفع بجاهه، وبكاه قارئ كتبه لانه كان يجد فيها من غزارة المادة وجمال الاسلوب وسهولة التناول مالايجد السبيل اليه فى غيرها، وبكاه قارئ رواياته لانه كان يجد فى خيالها وبراعة تصوراتها عونا له على هموم الحياة وأرزائها، أما أنا فبكيته لأمر فوق ذلك كله

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات ناطقها وصامتها ساكنها ومتحركها جامدها وسائلها فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التى تقومها أو صورتها التى تتشكل بها، وتأخذ منها النباتات نماءها والازهار ألوانها والنار حرارتها والاجسام الحية قوتها والاجسام الجامدة صورتها والاجواء طهارتها ونقاءها، والآفاق جمالها وبهاءها، وكذلك كان جرجى زيدان فى سماء هذا البلد

كان بطلا من أبطال الجد والعمل والهمة والنشاط، يكتب أحسن المجلات ويؤلف أفضل الكتب وينشئ أجمل الروايات ويناقش ويناضل ويبحث وينقب ويستنتج ويستنبط ويجيب السائل ويفيد الطالب فى آن واحد، لايشغله أمر من تلك الأمور عن أمر غيره، ولا يشكو مللا ولا ضجرا ولايحس بخور ولافتور،

فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين، يتعلمون منه أن قليلا من العلم يتعهده صاحبه بالتربية والتنمية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير والعمل القليل

ولو شئت أن أقول لقلت أن جرجى زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التى وفدت الى مصر فى أواخر القرن الماضى فغيرت وجه العالم المصرى تغييراً كليا وغرست فى صحرائه القاحلة المجدبة أغراس الجد والعمل والشجاعة والاقدام والهمة والاستقلال، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون وينشئون الجرائد والمجلات وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعة يقوّمون بها حياتهم المادية وحياة أمتهم الادبية، ويتقون بها مذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباح مساء يتكففون رؤساءها ويسألونهم أن يتخذوهم عبيداً لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التى يجلسون عليها، فإما عطفوا عليهم فألقوا اليهم بالنزر القليل الخسيس من فتات تلك الموائد وإما طردوهم منها كما يطردون الكلاب الجرباء

وكان شريف النفس بعيد الهمة متجملا بصفات المؤرخ الحقيق الذى لا يتعصب ولا يتحيز ولا يداهن ولا يجامل ولا يترك

لعقيدته الدينية مجالا للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه ، فكتب وهو المسيحى الارثوذكسى تاريخ الاسلام فى كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذى لايكتم الحسنة اذا رآها ، ولا يشمت بالسيئة اذا عثر بها ، فاجتمع بين يديه فى مجلس عامه من أبناء الامة الاسلامية خواصها وعوامها عربها وعجمها جمع لم يجلس مثله بين يدى عالم من علماء الاسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر ، فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القويم حجته أمام أولئك المتعصبين من الاوربيين الذين لايثقون فى خبر من أخباره ولا فى بحث من أبحاثه بحديث شيعته وابنائه ، وكان فى تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يَكتب التاريخ بلسان التاريخ لا بلسان الدين والمثل الاعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه وميول نفسه وخواطر قلبه أمام الامانة للعلم والوفاء بحقه

وكان مستقيما فى عمله أميناً فى علائقه لايكذب ولا يتلون ولا يخيس بعهده ولا ينكث وعده ولا يكسو بضاعته لوناً غير لونها ليزخرفها على الناس ويجمّلها فى عيونهم ، فتعلم منه العاملون أن الكذب فى المعاملة ليس شرطا من شروط الربح ولا سبباً من أسباب النجاح

وكان واسع الصدر فسيح رقعة الحلم وَقف له فى طريق

حياته كما وَقف لغيره من قبله ومن بعده فريقُ المقاطعين فى هذا البلد الذين لاينطقون ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه ، وكمنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيصموه ، وقالوا إنه شوّه وجه التاريخ الاسلامى وعبث بحقائقه ، ولم يسألوه من أين نَقل ولا كيف استند ، بل سألوه لمَ لم يكتب كما كتبوا ، ويستنتج مثل مااستنتجوا ، كأنما لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسيحياً متسامحاً حتى أرادوا منه أن يكون مسلماً متعصباً يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون ، وينهج فيه كما ينهجون ، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد فى عمله وخبث النية في مذهبه ولم يستطيعوا أن يُروضوا أنفسهم الجامحة على أن يقولوا إن الرجل باحث مستنتج يخطىء مرة ويصيب أخرى ، أو يقولوا ان له فى تاريخ الاسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك ، وما أحسب أن واحداً منهم يعتقد شيئاً مما يقول ، ولكنهم كانوا يرون أن الدين سلعة تباع وتشترى وأن سلعته ملك لهم ووقف عليهم لايجب أن تُعرض فى حانوت غير حانوتهم ، وكانوا يظنون أن الرجل تاجر مثلهم يريد أن يفتح بجانب حانوتهم الحانوت التى يخافونها فاستوحشوا منه وأنكروا مكانه واستثقلوا ظله ، وقالوا مرة انه مسيحى لايؤمَن على الاسلام ولا على تاريخه كأنما ظنوا

انه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من العهد القديم أو العهد الجديد ، وقالوا أخرى انه سورى دخيل وفد الى هـذا البلد مسترزقا أو متجرا فما هو بمخاص ولا بأمين، وفاتهم عفا الله عنهم أنه ان كان ضيفاً فليس من أدب الضيافة ولا من خلال المروءة والكرم أن يمن المضيف على ضيفه بيده عنده وأن يعد عليه لقيماته التى يطعمها على مائدته ، وان كان تاجراً فقد باعهم بهذا النزر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله وينبوع ذكائه ومادة حياته ، فما كانوا من الخاسرين ، ولا كان من الرابحين

ووالله ماادرى كيف تتسع صدورهم للخمار الرومى واللص الايطالى والقواد الأرمنى أن يفتح كل منهم فى كل موطئ قدم من مدنهم وقراهم حانة يسلب فيها عقولهم أو مقمرا يسرق فيه أموالهم أو ماخورا يهتك فيه أعراضهم فلا يطاردونه ولا يحاربونه ولا يسمونه دخيلا ولا واغلا ثم يضيقون ذرعا بالعالم الشرقى ينزل أرضهم نزول الديمة الوطفاء بالصحراء المحرقة فيعلمهم العلم ويهذب نفوس أبنائهم ويثقف عقول ناشئتهم ويبعث فى نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط والشجاعة والاقدام

ذلك هو شقاء الامم ، وهـذا جواب السائلين عن أسباب سقوطها وانحطاطها

لم يضق الرجل ذرعاً بهذا كله بل كان شأنه معهم أن كان يعتب عليهم ولا يشتمهم، وينبههم الى أدب المناظرة وواجباتها ولا يؤنبهم، ويدعوهم الى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم ولا يمكر بهم، حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم وان كان مخطئاً، وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل وسوء الخلق وضيق العطن وان كانوا مصيبين

ولقد وضع بخطته هذه فى مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجر فى بناء الاخلاق الفاضلة فى هذه الامـة فتعلم منه كثير من أدباء هـذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون أن يتناظروا ولا يتشاتموا وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا فى معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف، فان تم لهذه الامة فى مستقبل حياتها حظها من شرف الاخـلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد فى جميع شئونها واغراضها فلتتذكر دائما ان جرجى زيدان كان أحد الذين أسسوا فى أرضها هذه الدولة الفاضله دولة الآداب والاخلاق

نحن لا تعوزنا المؤلفات ولا المترجمات، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون، وانما الذى يعوزنا روح عالية تخفق فى سماء هذه الامـة خفوق النجم الزاهر فى سمائه وتشرق فى نفوس أبنائها

إشراق الشمس فى دارتها فتبعث العزيمة فى قلب العاجز والشجاعة فى فؤاد الجبان ، وتقوم من الاخلاق معوجها ، وتصلح من الآداب فاسدها ، وتثبّت من العقول مضطربها ، وتعلم كل صغير وكبير وقوى وضعيف ان قيمة المرء فى حياته اداء واجبه للانسانية أولا ولامته ثانياً ولنفسه أخيراً ، وان الحب سعادة الانسان والبغض شقاؤه وبلاؤه ، وان الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن الاول يتسع صدره لكل شىء حتى لمخالفيه ومحاربيه ، وأن الثانى يضيق صدره بكل شىء حتى بنفسه ، وأن الله تعالى أوسع رحمة وأعلى حكمة من أن يسد فى وجوه عباده كل طريق للوصول اليه إلا طريق السيف والنار ، وأن هذه الاحقاد الدنيئة التى تلتهب فى صدور الناس التهاباً لا تؤججها فى صدورهم الاديان نفسها بل رؤساء الاديان الذين يستخدمونها ويتجرون بها فى أسواق الغباوة والجهل ، وان الذين يقدسون هذه الاحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءاً من ماهية الدين ومقوماً من مقوماته انما يقولون من حيث لا يشعرون إن الالحاد فى العالم والفوضى الدينية فيه وعبادة الشمس والقمر والتراب والحجر أنفع للمجتمع الانسانى وأحسن عليه عائدةً من عبادة الاله المعبود

ولقد كان جرجى زيدان روحاً من تلك الارواح العالية

تمنيناها برهة من الزمان حتى وجدناها فلم ننعم بها الا قليلا ثم فقدناها أحوج ما كنا اليها فذلك مايبكينا عليه ويحزننا على فراقه

*
* *

الكاتب كالمصور كلاهما ناقل وكلاهما حاك ، الا أن الاول ينقل مشاعر النفس الى النفس، والثانى ينقل مشاهد الحس الى الحس

وكما أن ميزان الفضل فى التصوير أن تكون الصورة والاصل كالشىء الواحد، كذلك ميزان الفضل فى الكتابة أن يكون المكتوب فى الطرس، خيال المكنون فى النفس

بهذه العين التى لا أزال أنظر بها دائما الى الكتابة والكتاب وأوازن بها بين اقدارهم ومنازلهم كنت أقرأ ذلك الاسلوب العذب البديع الذى كان يكتب به المرحوم جرجى زيدان كتبه ورواياته فاتخيله مرآة نقية صافية قد ارتسمت فيها صورة نفس الكاتب جلية واضحة لاغموض فيها ولا ابهام

وقليلا ما كنت أجد فى نفسى هذا الشعور عند النظر فى كتابة كاتب سواه : لأن الكاتب ان استطاع أن ينال ثناء الناس واعجابهم ببلاغة لفظه أو براعة معناه أو سعة خياله أو قوة حجته

فانه لايستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم الا اذا كان من الصادقين المخلصين .

كنت أرى عذوبة نفسه فى عذوبة لفظه ، وطهارة قلبه فى طهارة لسانه ، وصفاء ذهنه فى وضوح اغراضه ومراميه ، وجمال ذوقه فى جمال ملاحظاته واستنتاجاته ، وكان خير مايعجبنى منه ترفعه عن مجاراة المتكبرين من الكتاب فى كبريائهم ونزوله فى كثير من مواقفه الى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمون ، لأنه كان من كتاب المعانى لا من كتاب الالفاظ ، ولأنه كان يؤثر أن يتعلم عنه الجاهلون ، على أن يرضى عنه المتحذلقون

وان كان الرجل هو الاسلوب كما يقولون فلا أعلم أحدا فى هذا البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجى زيدان فوارحمتاه له وواسفا عليه

احترام المرأة

نعم إن الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى فى كتابه العزيز ولكنّ المرأة عماد الرجل ومِلاك أمره وسر حياته من صرخة الوضع الى أنّة النزع

لا يستطيع الاب أن يحمل بين جانحتيه لطفله الصغير عواطف الام، فهى التى تحوطه بعنايتها ورعايتها، وتظلله بجناح رحمتها وشفقتها، وتسكب قلبها فى قلبه حتى يستحيلا إلى قلب واحد يخفق خفوقاً واحدا ويشعر بشعور واحد، وهى التى تسهر عليه ليلها وتكلؤه نهارها وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها فى سبيله غير شاكية ولا متبرمة بل تزداد شغفاً به وإيثاراً له وضنّاً بحياته بمقدار ما تبذل من الجهود فى سبيل تربيته، ولو شئت أن أقول لقلت إن سر الحياة الانسانية وينبوع وجودها وكوكبها الاعلى الذى تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر فى كلمة واحدة (قلب الام)

ولا يستطيع الرجل أن يكون رجلا تام الرجولة حتى يجد الى جانبه زوجة تبعث فى نفسه روح الشهامة والهمة وتغرس فى قلبه كبرياء المسؤولية وعظمتها ، وحسب المرء أن يعلم أنه سيد وأن له رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه وتستظل بظل حمايته ورعايته وتعتمد فى شؤون حياتها عليه حتى يشعر بحاجته إلى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه فى نفسه، فلا يزال يعالج ذلك ويأخذ نفسه به حتى يتم له ، وما نَصح الرجلَ بالجد فى عمله والاستقامة فى شؤون حياته وسلوك الجادة فى سيره ولاهداه إلى التدبير ومزاياه والاقتصاد وفوائده والسعى وثمراته ، ولا دَفع به فى طريق المغامرة والمخاطرة والدأب والمثابرة مثلُ دموع الزوجة المنهلة ويدِها الضارعة المبسوطة

ولا يستطيع الشيخ الفانى فى أخريات أيامه أن يجد في قلب ولده الفتى من الحنان والعطف والحب والايثار ما يجد من ذلك فى قلب ابنته الفتاة ، فهي التى تمنحه يدها عكازاً لشيخوخته وقلبها مستودعاً لاسراره وهواجس نفسه ، وهى التى تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمّع أنفاسه وتصغى إلى أنّاته وتحرص الحرص كله على أن تفهم من رعشات يديه ونظرات عينيه حاجاته وأغراضه ، فاذا نزل ستار الموت بينها وبينه كانت هى من دون أهله جميعاً

الوارثة الوحيدة التى تَعُد موته نكبة عظمى لا يهونها عليها ولا يخفف من لوعتها فى نفسها أنه قد ترك من بعده ميراثاً عظيما ، وكثيراً ما سَمع السامعون فى بيت الميت قبل أن يجف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون ويشتجرون فى الساعة التى يجتمع فيها بناته ونساؤه فى حجراتهن نائحات باكيات

وجملة القول أن الحياة مسرات وأحزان ، أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة لأنها مصدرها وينبوعها الذى تتدفق منه ، وأما أحزانها فالمرأة هى التى تتولى تحويلها إلى مسرات أو ترويحها عن نفوس أصحابها على الاقل ، فنحن مدينون للمرأة بحياتنا كلها

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة مما أقول إن الاطفال الذين استطاعوا فى هذا العالم أن يعيشوا سعداء مَعنياً بهم وبتربيتهم وتخريجهم على أيدى أمهاتهم الارامل الضعيفات أضعافُ الاطفال الذين نالوا هذا الحظ على أيدى آبائهم الاقوياء الاثرياء بعد فقد أمهاتهم ، وللرحمة الامية الفضل العظيم فى ذلك

فليت شعرى هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التى أسدتها الينا وجازيناها بها خيراً !

لا ، لاننا إن منحناها شيئاً من عواطف قلوبنا ومشاعر

نفوسنا فاننا لانمنحها أكثر من عواطف الحب والود، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والاجلال، وهى إلى نهلة واحدة من موارد الاجلال والاعظام أحوج منها إلى شؤبوب متدفق من سماء الحب والغرام

قد نحنو عليها ونرحمها، ولكنها رحمة السيد بالعبد لارحمة الصديق بالصديق، وقد نصفها بالعفة والطهارة، ومعنى ذلك عندنا انها عفة الخدر والخباء لاعفة النفس والضمير، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها لاباعتبار إنها انسان كامل لها الحق فى الوصول الى ذروة الانسانية التى تريدها وفى التمتع بجميع صفاتها وخصائصها، بل لنعهد اليها بوظيفة المربية أو الخادم أو الممرضة. أو لنتخذ منها ملهاة لانفسنا ونديما لسمرنا ومؤنساً لوحشتنا، أى اننا ننظر اليها بالعين التى ننظر بها الى حيواناتنا المنزلية المستأنسة، لانسدى اليها من النعم ولا نخلع عليها من الحلل الا ماينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسروراً

إنها لاتريد شيئاً من ذلك، انها لاتريد أن تكون سرية الرجل ولا حظيته ولا أداة لهوه ولعبه بل صديقته وشريكة حياته

انها تفهم معنى الحرية كما يفهمها الرجل فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه

إنها لم تُخلق من أجل الرجل بل من أجل نفسها ، فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه

يجب أن تنفس عنها قليلا من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كياناً مستقلا وحياة ذاتية وانها مسئولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها لا أمام الرجل

يجب أن تعيش فى جو الحرية وتستروح رائحته المنعشة الاريجة ليستيقظ ضميرها الذى أخمده السجن والاعتقال من رقدته ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها ومراقبة حركاتها وسكناتها ، فهو أعظم سلطانا وأقوى يداً من جميع الوازعين والمسيطرين

يجب أن نحترمها لتتعود احترام نفسها ، ومن احترم نفسه فهو أبعد الناس عن الزلات والسقطات

لا يمكن أن تكون العبودية مصدراً للفضيلة ولا مدرسة لتربية النفوس على الاخلاق الفاضلة والصفات الكريمة الا اذا صح أن يكون الظلام مصدراً للنور والموت علة فى الحياة والعدم سلماً الى الوجود

كما لا أريد أن تتخلع المرأة وتستهتر وتهيم على رأسها فى مجتمعات الرجال وأنديتهم وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل

عليها وهو المعنى الذى يفهمه البسطاء من العامة عادة من كلمة الحرية عند اضافتها الى المرأة ، كذلك لا أحب أن تكون مستعمرة ذليلة يسلبها مستعمرها كل مادة من مواد حياتها ويأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير

وبعد فاما أن تكون المرأة مساوية للرجل فى عقله وإدراكه أو أقل منه، فان كانت الاولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق، والنظير للنظير ، وان كانت الاخرى فليكن شأنه معها شأن المعلم مع تلميذه والاب مع ابنه ، أى إنه يعلمها ويدربها ويأخذ بيدها حتى يرفعها الى مستواه الذى هو فيه أو ما يقرب منه، ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفى والعشير الكريم ،والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله ، والاب لا يحتقر ابنه ولا يزدريه

الانتقام

« مترجمة »

١

قضى المسيو « كاپريني » برهة طويلة من أيام حياته سعيداً مغتبطاً بزوجة جميلة وثروة صالحة وخلق طيب شريف يحببه الى الناس جميعاً ، ثم نكبه الدهر نكبةً عظمى ذهبت بماله وبزوجته ، فبكاهما ماشاء الله أن يفعل ، ثم بلِيَ حزنه كما تَبلى جميع الاحزان فى قلوب الناس ، ولم يجد بدًّا من أن يعيش لابنته « إيلين » ليتولى تربيتها وإسعادها ، فالتحق بمصرف من المصارف المالية بمرتب قليل ثم لم يزل يبذل جهده فى خدمة العمل الذى وُكل اليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلا لذلك المصرف ، فكان يعمل فيه سحابة نهاره ثم يعود ليلا الى منزله فيرى ابنته منهوكة متضعضعة لكثرة ما كانت تبذل من الجهد فى خدمة المنزل ومناظرة شئونه ، فرأى أن يتزوج ليخفف عنها بعض متاعبها وآلامها ففعل وكان سيئ الحظ فى اختياره فتزوج من امرأة فاسدة خليعة لاهم لها فى حياتها

سوى ترفيه عيشها وتدليل نفسها والتقلب بين أعطاف شهواتها ولذائذها ، فلم ينتفع منها بشيء بل زادت همومه وآلامه وأثقال عيشه ، ولكن ماذا يعمل وقد وُضعت السلسله في عنقه وانتهى الأمر ، واصبحت ابنته بعد أن كانت سيدة بيتها وأميرة نفسها أسيرة في يد امرأة قاسية داهية تسومها أنواع الخسف وصنوف العذاب ، فكانت تحتمل ذلك كله بصبر وجلد ، وكانت تَكتمهُ أباها كتمانا شديداً ضنا براحته وسكونه ، بل كانت تكتم عنه علائق زوجته وصِلاتها بمعارفها وأصدقائها رحمة به واشفاقاً عليه

وكثيراً ما كان يعود الى منزله في بعض لياليه حاملا بعض دفاتر المصرف في يده ليتمم فيها العمل الذي أعجله الوقت عن إتمامه هناك فيجلس الى مكتبه ساهراً ليله مكباً على عمله ذائداً النومَ عن عينيه حتى يغلبه على أمره فينام في مكانه والقلم معلق بين أصابعه في الساعة التي تكون فيها زوجته بين جمع من أصدقائها وصديقاتها في بعض الملاعب أو الحانات أو المجتمعات الخاصة راقصةً لاهية عابثة بجميع الفضائل الانسانية ، فاذا استيقظت ابنتهُ أثناء الليل ورأته على هذه الحاله مشت اليه برفق وهدوء وجلست على كرسي أمامه واجتذبت اليها الدفتر الذي بين يديه وأتمت فيه العمل من حيث قطعه ، ثم توقظه بعد ذلك لينام في فراشه فيشكر

لها يدها ومعونتها، ثم يسألها سؤال المتبرم المتعض : ألم تعد فلانة حتى الآن؟فتجيبه بالصمت أن لا ، فيذهب الى سريره حاملا بين جنبيه من الهم والألم ماالله به عليم

وجملة القول ان الرجل كان شقياً منحوسا ،يسير من شؤون حياته فى ظلمة داجية لاينتهى بصره فيها الى مدى ً، ولا يرى فى سمائها نجماً واحداً يتنوره الا ذلك النجم الضئيل الذى كان يلمع من حين الى حين فى جبين ابنته الراحمة الشفوقة ، فيتنفس أمامه تنفس الراحة ويأذن لفمه أن يبتسم فى ضوئه ابتسامة الغبطة والسرور

فانه لجالس ذات يوم فى غرفة مكتبه من المصرف إذ دعاه اليه مديره وسلم له ورقة مالية قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة ويسجلها فى دفاتر المصرف ، فتناولها منه وعاد بها الى غرفته ووضعها على مكتبه وتناول الدفتر ليقيدها ، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف وقال له إن فتاة من هيئتها كيت وكيت واقفة بالباب تسأل عنك وهى تكتم اسمها وتأبى الدخول فاضطرب اضطراباً شديداً ومرّ بخاطره انها ابنته وأن حادثاً عظيما حدث بالمنزل دعاها الى الحضور اليه ، ولم يكن من شأنها أن تحضر

اليه فى المصرف قبل اليوم ، فترك كل شئ فى مكانه وخرج مسرعاً ليراها فاذا هى بعينها واقفة تحت جدار المصرف وقفة الحياء والخجل واذا بيدها كتاب تحمله اليه من زوجته فاختطفه منها وقرأه فاذا هى تقول له فيه إنها تريد أن يرسل اليها فى هذه الساعة خمسة آلاف فرنك لتبتاع بها حلة جميلة رأتها فى حانوت بعض تجار الملابس وأنها إن فاتها أن تبتاعها اليوم فربما لا تجدها غداً ، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة الغيظ والالم وأخذ ابنته ناحية وقال لها بلغيها اننى لا أملك هذا المبلغ اليوم ولا غداً وربما لا أستطيع ذلك العام كله ، ثم القى عليها نظرة العاتب لحضورها اليه فى المصرف وكان لا يحب ذلك منها ، فاطرقت برأسها ولم تقل شيئا لأنها لا تستطيع أن تقول له إن زوجته هى التى أرغمتها على ذلك فتزيد همومه هما جديداً ، ثم عادت أدراجها

وكان بين عمال المصرف عامل سيء الاخلاق فاسد النفس والضمير مازال مذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله علّه يتوصل الى اختلاس شئ من المال لنفسه فدخل غرفة الوكيل فى اللحظة التى خرج فيها لمقابلة ابنته ليقدم اليه بعض الاوراق فلم يجده ولمح الورقة المالية التى تركها على المكتب فحدثته نفسهُ باختلاسها فدار بنظره ههنا وههنا ثم انقض عليها ووضعها

فى جيبه ثم خرج متسللا لم يشعر أحد بدخوله ولا بخروجه ، وما هى الا لحظة حتى عاد المسيو «كاپرينى» وفى يده الكتاب الذى أرسلته اليه زوجته فمزقه بضع مِزق وألقى به فى سلته، ثم ألقى نظره على المكتب فلم ير الورقة المالية حيث تركها فذُعر ذعراً شديداً وأخذ يفتش عنها فى كل مكان فلم يجدها فاشتد حزنه وهمه وأخذ يسأل العمال والخدم عمن دخل غرفته فى غيابه فلم يعترف له بذلك أحد ولم يشهد به أحد على أحد، فظل يصرخ صرخات عظيمة تقيم المصرف وتقعده فسمع المدير الضوضاء فحضر ليرى ماذا حدث فأفضى اليه الرجل بالقصة كما هى لم يكتمه منها شيئا الا انه لم يشأ أن يخبره بموضوع الرسالة التى جاءت فيها ابنته ضنا بأسراره البيتية أن يعلمها أحد غيره ، فارتاب به الرجل بينه وبين نفسه ولم يكن يعتد عليه بسيئة قبل اليوم ولا يعرف له ماضيا مريبا ولكنه كان يعلم انه فقير مقل فظن به الظنون ، وقديماً كان الفقر ينبوع التهم ومثار الشكوك والريب، ثم تركه فى غرفته وخرج الى العمال والخدم يحادثهم فى هذا الشأن عله يصل الى معرفة الحقيقة فأخبره البواب ان الفتاة التى حضرت اليه كانت تحمل فى يدها كتاباً وانه أخذها جانبا وأسر اليها حديثاً لم يسمع منه شيئا، فازداد شكه وارتيابه وعاد اليه فوجده واقفاً فى مكانه

مذهو لا يقلب كفيه فلم يقل له شيئا وأخذ يدور بعينيه فى أنحاء الغرفة ويقلب بيده الاوراق عله يعثر بذلك الكتاب الذى أخبر به البواب فلم يجده ، فألقى نظره على السلة فرأى تلك المِزَق فجمعها فاذا هى الكتاب الذى يريده فقرأه ثم ألقى على الرجل نظرة شزراء وقال له : إنى أتهمك يامسيو كاپرينى بأنك اختلست تلك الورقة وأرسلتها الى زوجتك مع ابنتك لتبتاع بها الحلة الجميلة التى اعجبَتها ، فدهش الرجل دهشة شديدة وورد عليه من الامر ما طار بلبه وأخذ عليه أنفاسه ، فصمت لحظة وبعد لأْى استطاع أن يقول له : نعم إنها أرسلت الىّ هذا الكتاب ولكننى لم أحفل به ولم أرسل اليها شيئا بل رددتها رداً قبيحاً لأنى رجل فقير لا أملك هذا المقدار ، ولأنى رجل شريف لا أختلسه ، فلم يحفل المسيو « لورين » بدفاعه ولم يرث لضراعته واسترحامه ، ولم يلبث أن رفع أمره الى النيابة فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل فى السجن وكانت ابنته المسكينة فى حال من الهم والحزن تستثير الاشجان وتستذرف العبرات ، أما زوجته فلم يكن يهمها فى ذلك الموقف شيء سوى السعى للحصول على ثمن الحلة الجميلة من طريق غير هذا الطريق

لم ينفع الرجلَ دفاعه عن نفسه ولا دفاع ابنته عنه ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه وأصدقائه لان المحققين

لا يستطيعون ان يصدقوا أن رجلا عظيما سريا مثل المسيو «لورين» صاحب المصرف المشهور يكذب أو يلفق أو يخطئ في فراسته وتقديره ، وأن رجلا فقيرا مقلاً مثل المسيو كاپريني يتعفف عن اختلاس المال الذي يقع تحت يده متى وجد السبيل الى ذلك ، وكثيراً ماساقت أمثال هذه الاقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء الابرياء والاشراف الى أعماق السجون وقضت عليهم وعلى عائلاتهم القضاء الأخير كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم ، فان قاضي التحقيق لم يلبث ان سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذي ارسلته اليه زوجته حتى اقتنع باجرامه وأحاله على محكمة الجنايات

فاستطير عقل « إيلين » وجن جنونها فلم تجد بدا من أن تذهب الى المسيو لورين لتستعطفه لأبيها وتضرع اليه أن يساعدها على تبرئته ، فذهبت اليه في منزله فاستأذنت عليه ثم دخلت فدهش دهشة عظمى حين رأى أمامه فتاة رشيقة جميلة بل هي آية من آيات الحسن والجمال لا عيب فيها الا أنها نحيلة صفراء متضعضعة وقد يكون الضعف عند بعض الناس حلية من حلى الجمال ، فافتتن بها حين رآها الا أنه اخطأ في الحكم عليها كما اخطأ من قبل في الحكم على أبيها ، فظن انه يستطيع أن يستثمر لنفسه

ضرورتها وحاجتها، فأخذ يحدثها فى الشأن الذى جاءت من أجله ثم ذهب معها فى الحديث مذاهب أخرى لم تفهم غرضه منها الا بعد حين لأنها لم تألف سماع مثلها قبل اليوم، فأخذ وجهها يربدّ شيئا فشيئا ثم انتفضت انتفاضة الليث فى غِيله والقت عليه نظرة هائلة لو ألقتها على رجل غيره لصُعق فى مكانه ولكنه كان رجلا وَقاحاً متبلدا فلم يحفل بنظرتها وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها فدافعت عن نفسها دفاعاً شديداً حتى عجزت فارادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقها فدارت بنظرها فى انحاء الغرفة تتلمّس سبيلا الى الخلاص فوقع نظرها على مسدس كان فوق مائدته فاختطفته لتهدده به فانطلقت منه رصاصة خطأ فأصابته فى ذراعه فصرخ صرخة عظمى، وما هى الا لحظات قلائل حتى قبض عليها وسيقت الى السجن بتهمة أنها دخلت على المسيو «لورين» فى منزله لتسأله أن يساعدها على تبرئة والدها فلم يحفل بها فأخرجت مسدساً كانت تخفيه فى طي ردائها وأطلقته عليه تريد قتله فلم تصبه الا فى ذراعه

وقد كان فى استطاعة المسيو لورين أن يعترف بالحقيقة التى يعرفها حق المعرفة فلم يفعل، ولو فعل لماضره ذلك شيئا، وما هى الا أيام قلائل حتى حكمت عليها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنين، وكانت قد حكمت على أبيها قبل ذلك بالسجن عامين

٢

دخلت « ايلين » سجن النساء لتقضى فيه المدة المقدرة لهـا ووضعت فى غرفة مع امرأة عجوز ساقطة قضت جزءاً عظيماً من حياتها فى هـذا المكان المظلم القاتم حتى ألفته وجمدت نفسها عليه فلم تعد تحفل بشيء فى هـذا العالم ولا تفكر الا فى الساعة التى يقدَّم فيها اليها الطعام فتلتهمه التهاماً بشره ولهفة وهى تضحك وتتغنى كأنما هى أبعد الناس عن الهموم والاحزان ، فذعرت إيلين حين رأتها ذعراً شديدا وانسلت الى زاوية من زوايا الغرفة فقبعت فيها واستسلمت لهمومها وأحزانها ، ولم تدع قطرة من الدمع فى عينيها الا ذرفتها وأبت أن تتناول الطعام الذى قدمه اليها السجان فوضعه بين يديها وتركها وشأنها ، فبكت ماشاء الله أن تفعل حتى هـدأ بعضُ مابها فعمدت الى كتاب صغير من كتب الاخلاق كانت لاتزال تحمله فى جيبها ماتفارقه فأخرجته وأخذت تتلهى بتقليب صفحاته فكان أول ماوقع نظرها عليـه من كلماته هذه الكلمة « العفو أشد أنواع الانتقام » فانتفضت عنـد قراءتها انتفاضاً شديدا وعَلق نظرها بها ماينتقل عنها ، وأخذت تراجع الحوادث التى مرت بها وتستعرضها واحدة بعد أخرى وتفكر فى المظالم التى نالتها ونالت أباها وما اقترفا ذنباً ولا

جنيا على أحد حتى أوردتهما هذا المورد من الشقاء ، فشعرت بدبيب الشر فى نفسها للمرة الاولى فى حياتها وظلت تقول فى نفسها : إن الذين مرت على ألسنتهم أمثال هذه الكلمات انما كانوا يعيشون فى عصر غير هذا العصر وبين أناس غير هؤلاء الناس ، ولو أنهم عاشوا بيننا لكان لهم فى العالم وأهليه رأى غير هذا الرأى ولما اجترأوا على المجازفة بتدوين هذه الافكار فى كتبهم ، لأن العفو لايكون انتقاماً إلا من أصحاب الضمائر الطيبة الطاهرة التى يقلقها الذنب ويخجلها العفو والتى تصدر عنها سيآتها زلات وهفوات ، أما الضمائر القاسية المتحجرة التى لاتعبأ بشئ ولا تخجل من شئ فلا يزيدها العفو والصفح الا تمرداً وطغيانا

وإنها لذاهبة هذه المذاهب المختلفة من خواطرها وأفكارها إذ دنت منها جارتها العجوز تختلس الخطى اليها اختلاساً حتى وقفت وراءها ونظرت فى الصفحة التى تنظر فيها فوقع نظرها على تلك الكلمة التى كانت تنعم النظر فيها فقهقهت ضاحكة بصوت عال غريب فارتعدت « إيلين » والتفتت وراءها صارخة: ماذا تريدين ياسيدتى ؟ قالت لاتخافى يابنيتى ولا تراعى فما أنا بمجنونة كما ظننت وكما يظن سكان هذه الدار ولكننى رأيتك مستغرقة فى هذا الكتاب لاترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك : دعى الكتب

وشأنها لاتحفلي بها ولا تعوّلى على شيء مما فيها ، فان أصحابها الذين وضعوها غرباء عن هـذا العالم لايفهمون من شؤونه شيئا إلا كما نفهم نحن من شؤون عالم الجنّ أوسكان المريخ ، بل هم قوم معتوهون ممرورون قضوا أيام حياتهـم فى معتزلاتهم الخاصة المملة التى لاتوجد فيها نافذة واحدة تشرف على العالم وما فيه فملوا وسئموا وأرادوا أن يروّحوا عن أنفسهم ويتلهوا بما يسرّى عنهم مللهم وسآمتهم، فأخذوا يدونون هذه المبادىء التى انتزعوها من جوانب أدمغتهـم ، لامن طبيعة المجتمع الذى يحيط بهم ، ويقررون الآراء التى يستحسنونها ويعجبون بها لاالتى تتفق مع طبيعة الـكون ومزاجه ، فهم ينصحون المجرم أن يقلع عن إجرامه ثم يخيل اليهم أنه قدأقلع ونزع فيطلبون الى من أجرم اليه أن يعفو عنه قائلين له « ان العفو أشد أنواع الانتقام » كأن الفضيلة عندهم هى الحالة الاساسية للنفوس ، وكأن الاجرام عرض من أعراضها الطارئة عليها لاتلبث أن تهب عليه نسمة من نسمات العظة والاعتبار حتى تذهب به ، فما أسخف عقولهم وما أقصر أنظارهم وما أبعـدهم عن فهم حقائق الحياة وطبائع النفوس ، دعى الـكتب يابنيتى لاتنظرى فيها ، وانزعى عنك همومك وأحزانك ، وكلى الطعام الذى

يقدّم اليك هانئة مغتبطة لاتلوين على شيء مماوراءك، فسيأتى قريباً أو بعيدا ذلك اليوم الذى يُفتح لك فيه هذا الباب الموصد دونك فتخرجين الى الانتقام من الرجل الذى أساء اليك وساقك الى هذا المكان وتنالين منه فوق مانال منك كما سأفعل أنا يوم خروجى بالرجل الذى ساءنى وأفسد علىّ حياتى، فليس العفو أشد أنواع الانتقام كما يقولون بل الانتقام أعظم ملذات الحياة

فهدأت نفس إيلين قليلا واستطاعت أن تتناول شيئا من الطعام الذى قدم اليها، إلا انها كانت اذا جاء الليل رأت أباها فى منامها يقاسى أنواع العذاب وصنوف الآلام فى سجنه فتصبح باكية نادبة لايهوّن عليها آلامها بعض التهوين الا ثرثرةُ تلك العجوز وهذيانها حتى نامت ذات ليلة فرأته ميتاً على سرير من أسرة مستشفى السجن تحيط بجثته شمعتان مشتعلتان فاستيقظت فزعة مذعورة تبكى وتنتحب، وماهى الا هنيهة حتى دخل عليها السجان يدعوها لمقابلة مدير السجن فذهبت اليه فأبلغها أن أباها توفى الليلة فى المستشفى فصعقت صعقة كادت تذهب بنفسها، ثم استفاقت فاذا هى فى غرفة سجنها واذا هى أشد عباد الله بؤساً وأعظمهم شقاء

٣

قضت « إيلين » سنواتها الخمس فى سجنها ثم خرجت ورفيقتها العجوز تشيعها الى الباب وتقول لها لا تنسى يا بنيتى أن تنتقمى من عدوك الذى أساء اليك وتنكلى به تنكيلا عظيما ، وسأتبعك على الأثر عما قريب لأنتقم من عدوى مثلك ، وهل لمثلى ومثلك فى هذه الحياة الشقية البائسة لذة غير لذة الانتقام !

فودعتها وانصرفت لا تعلم أين تذهب ولأى طريق تسلك، بل لا تعلم أين تجد قوت يومها أو المضجع الذى تأوى إليه سواد ليلتها فقد انقطعت صلتها بالعالم كله بعد موت أبويها ووُسم جبينها بلقب « المجرمة » الذى خرجت به من سجنها

ولم تزل سائرة ساعات طويلة حتى شعرت بالتعب وأحسَّت بالجوع يعبث بأحشائها فحدثتها نفسها بالانتحار فراراً من الألَم وزهداً فى الحياة وظلت تترجّح ساعة بين الأُنس بهذا الخاطر والنفور منه حتى غلبها على أمرها فأخذت طريقها إلى النهر وكانت الليلة داجية مكفهرة تلمع بروقها وتهطل غيومُها وتدمدم رعودها وتعصف رياحها فاستمرت أدراجَها حتى إذا لم يبق بينها وبين النهر إلا بضع خطوات سمعت قعقعة مركبةٍ مقبلةٍ نحوها من

بعيد يمزق نورُ مصباحيها المشتعلين أحشاء الظلمات فتريثت هنيهة في مكانها حتى مرت المركبة بها فاذا المسيو « لورين » جالساً بين بضع فتيات خليعات يعابثهن ويداعبهنّ ويقهقه قهقهة عالية ترنّ في أجواز الفضاء فاختبأت وراء شجرة حتى مرّ ثم برزت من مخبئها تحدث نفسها وتقول : ها هو المجرم سعيد في حياته مغتبط بعيشه يتقلب في أعطاف العيش الناعم لا ينغص عليه عيشه منغص ولا يكدر حياته مكدر ، وهأنذا البريئة الطاهرة التي لم ألوث يدى في حياتى بجريمة ولم أقترف بينى وبين ضميرى إثما أهيم في هذا الوادى الفسيح على وجهى لا أعرف لى ملجأ ولا مأوى ، ولا أعرف سبيلا للعيش ولا مذهباً ، ولو عرفت لما استطعت أن أنتفع بمعرفتى ، لأننى مجرمة قاتلة ، ومن ذا يأمن على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين أو يعطف على بأسائهم وضرائهم !

لا لا ، لابد أن أعيش ولابد أن أنتقم ، ومادامت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد عجزتْ عن أن تنتصف للناس من الناس فلينتصف الناسُ بأنفسهم لأنفسهم

وانحدرتْ من طريق النهر إلى طريق المدينة وقد ودَّعت في تلك اللحظة جميع خواطر الخير التى ملأت فضاء نفسها طول

حياتها وخلعت ذلك الثوب الجميل المتلألئ الذى لبسته مذ برزت إلى الوجود حتى اليوم — ثوبَ الشرف والكرامة والطهارة والأدب — واستحالت نفسها الطاهرة الكريمة إلى نفس أخرى غيرها لا صلة بينها وبينها ، فلم ينحدر برقع الظلام عن وجه الصباح حتى رآها الناس سائرة مع أحد العمال المريبين هادئة ساكنة باسمة متطلّقة لم يبق فى وجهها من دم الحياء إلا بضع قطرات قد أخذ لونها يستحيل شيئاً فشيئاً إلى لون البياض لتلحق باخواتها

٤

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة فى تلك الهوة التى حفرها المجتمع الانسانى لأمثالها من الفتيات البائسات ، فظلت تتنقل من يد إلى يد ومن مضجع إلى مضجع ، وكأنّ الحظ الذى فارقها وتجهّم لها فى حياة الطهارة والعفة أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلّل فى حياة السقوط والفساد ، فما هى إلا أيام قلائل حتى طلعت فى سماء باريس نجما ساطعاً متلألئاً تنير كل أفق تشرق فيه وتعطّر كل أرض تخطر بأرجائها وتعبث بألباب الرجال عبث النسائم بأوراق الأشجار

فانها لجالسة ذات ليلة فى مقصورة من مقاصير بعض الملاعب التمثيلية فى جمع من أصدقائها المستهترين بها إذ وقع نظرها على خصمها المسيو « لورين » جالساً في المقصورة المقابلة لها مع إحدى خليلاته فانتفضت حين رأته وثارت فى نفسها ثائرة الغيظ والحنق وظلت تردد النظر فى وجهه طويلا فالمحها وهى تنظر إليه فأعجبه منظرها البارع الجميل إلا أنه لم يعرفها فقد تغير كل شيء فيها حتى ملامحها وشمائلها، فما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعاً وذهب يرود حول مقصورتها حتى التقى بأحد أصدقائه وأصدقائها فى دهليز المقاصير فسأله عنها فأخبره أنها السيدة « لوسى » المارسيلية أجمل فتاة وفدت إلى باريس فى هذا العام، فتوسل إليه أن يقدمه إليها ففعل فأحسنت ملتقاه وقد أضمرت له فى نفسها شرَّ ما يضمر عدوٌّ لعدوِّه وأقبلت عليه تحدثه وتلطف به وتمدّ له الحبالة التى اعتادت أن تمدها كل يوم لأمثاله، فما لبثت أن وقعت من نفسه وملكت عليه جميع مشاعره، ثم رُفع الستار فاستأذنها وعاد إلى مقصورته وقد حلَّت من قلبه محلا لم يحلّه أحد من قبلها

وفي صباح اليوم الثانى أرسل إليها مع بعض رسله طاقة جميلة من الزهر قد دس بين أوراقها عقداً بديعاً من اللؤلؤ الثمين

فابتهجتْ به حين رأته لا لأنها فى حاجة إلى العقود والدمالج بل لأَنها علمت أنها قد وضعت يدها على الزمام الذى تقوده به إلى الهلاك ، ثم زارها على الأَثر وخرَّ جاثياً تحت قدميها مقدماً لها قلبه وحياته وكلَّ ما تملك يده ، أى أنه جثا تحت قدميْ تلك الفتاة المسكينة التى جثت تحت قدميه منذسنوات تسألهأن يساعدها على فكاك أبيها من سجنه وتضرع إليه أن يغفر له ذنبه إليه إن كان يعتقد أنه مذنب فلم يفعل ، ولو أنه فعل لابتاع بثمن قليل لا يوازى ربع ثمن العقد الذى يقدمه الآن إليها قلباً طاهراً نقياً لم تلوثه الذنوب والآثام ولم تعبث به الأَهواء والشهوات وعاش عيشاً طاهراً شريفاً مع خير الزوجات وأفضلهن خَلقاوخُلُقاً، ولـكن هكذا قُدر لهؤلاء القوم الضعفاء أن يضنُّوا بالنزر اليسير من أموالهم على ابتياع القلوب الشريفة الطاهرة ، فاذا لوثتها الذنوب والآثاموأصبحت نهباًمقسمافى أيدى الشهوات بذلوا فى سبيل الوصول إليها جميع ما تملك أيديهم حتى شرفهم وحياتهم ، فقد ابتاع المسيو « لورين » لخليلته الجديدة قصراً جميلا أثَّثه أثاثاً حسناً ونزل على حكمها فى كل ما تريد وتشتهي حتى أنفق عليها فى عام واحد كل ما تملك يمينه، ثم اضطر أن يعبث بودائع الناس

المودعة فى مصرفه فمشى فى ذلك المزلق المنحدر مدىً بعيداً أشرف منه على الخطر العظيم

وحدث أن فُتحت سوق للاحسان فى باريس وكانت «لوسى» إحدى النساء اللواتي وقع عليهن الاختيار لبيع الأزهار فيها، وكان تجار تلك السوق أجمل نساء باريس على الاطلاق، فجلست فى حانوتها المعدّ لها وقد أمسكت بيدها زهرة جميلة تعرضها للبيع وتعِد من يبتاعها منها أن يتناولها بفمه من فمها، فازدحم حولها كثير من الأغنياء يتزايدون فى ثمن تلك الزهرة حتى برز رجل من بينهم اسمه الكونت مارسيال فعرض فيها خمسمائة فرنك، فقالت لا أبيعها إلا بألف، فأمسك الكونت وأمسك الناس جميعاً، وانهم لكذلك إذا بالمسيو «لورين» يتقدم بهدوء وسكون وفى يده ورقة بألف فرنك فوضعها بين يدى لوسى وقال لها لا يبتاع منك زهرتك يا سيدتى أحد سواى، فوضعتها بين ثناياها فتناولها منها بفمه بأسلوب رقيق حسده عليه مزاحموه جميعاً وخاصةً الكونت مارسيال، فقد انصرف من موقفه هذا وهو يقول: ما رأيت فى حياتى صاحب مصرف يذهب فى حياته هذا المذهب من البذخ والاسراف ويبعثر المال بلا حيطة ولا حذر كهذا الرجل، وما أحسَبُ أن ثروته الخاصة تتسع لكل هذا فلا بد أن يكون لصاً دنيئاً يسرق ودائع الناس ويبددها، فويل

المساهمين فى مصرفه ورحمة الله على أموالهم جميعاً، وكان يتكلم بصوت عال يسمعه الناس جميعهم، وليس بين الأحاديث حديث أسيَرُ ولا أذيَع من حديث السوء، فمشت كلماته فى المجتمعات العامة والخاصة فاضطرب لها المساهمون وأصحاب الودائع اضطرابا عظيما ووصل الخبر الى أعضاء مجلس ادارة المصرف فهالهم الأمر وأشفقوا على سمعة مصرفهم أن تنال منها هذه الأراجيف فيسقط سقطة لا قيام له من بعدها فقرروا الاجتماع فى يوم معين لمراجعة حسابه وتفقد أمواله، فلما علم ذلك المسيو لورين أخذ يزوّر فى السندات ويعبث بدفاتر الحساب طلباً للخلاص من التبعة فلم يجده ذلك شيئاً، فقد فهم مجلس الادارة كل شىء فلم ير بداً من أن يرفع الأمر إلى القضاء ففعل والمسيو لورين مستغرق فى شهواته ولذاته جاث ليله ونهاره تحت قدمى خليلته لا يشعر بشىء مما يجرى حوله لولا أن أحد أصدقائه من المحامين وقف على الخبر فزاره فى منزله ليخبره به فلم يجده فذهب إلى منزل لوسى فوجده فأخبره أن الامر قد صدر بالقبض عليه وأنه إن لم يبادر بالسفر فى الحال فقد هلك إلى الابد، فأشار إلى «لوسى» أن تُعد له حقيبة ملابسه وأن تهيئ نفسها للسفر معه وهو أعظم الناس ثقة بها وبحبها وإخلاصها، فتظاهرت بالاذعان لامره والرثاء

لحاله ولكنها لم تلبث أن خرجت من الغرفة حتى هرعت إلى غرفة «التليفون» وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب وأشارت عليه بارسال من يقبض عليه فى الحال ، ثم أمرت الخدم بغلق الابواب والوقوف فى وجهه إن أراد الفرار، ثم عادت إليه فسألها هل أعدت كل شىء؟ فنظرت إليه نظرة غريبة لم يفهم معناها ثم انفجرت ضاحكة بصوت عال فدُهش وسألها ما بالها ؟ فقالت لا شىء سوى أنك ستبقى سجيناً هنا حتى يأتى رئيس الشرطة للقبض عليك ، ثم ألقت عليه نظرة مخيفة هائلة فعجب لأَمرها ولم يعلم أمازحة هى أم نزل بها عارض من عوارض الجنون ، ونهض من مكانه مسرعاً ودنا منها وقال لها ماذا عرض لك يا لوسى ، فقد طلبت اليك أن تُهيئى نفسك للسفر معى فهل فعلت ؟ فقد أزف الوقت ولسنا الآن فى موقف مزاح ، وأخاف أن تفاجئنا الشرطة الساعة فتفوت الفرصة ، فضحكت ضحكة أخرى وقالت قد بلغتُ رئيس الشرطة أنك عازم على السفر وأشرت عليه أن يبادر بارسال الجنود إليك ، وقد أمرت الخدم بغلق الأَبواب دونك حتى لا تتمكن من الهرب قبل حضورهم ، فجُنّ جنونه وقد بدأ الريب يدب في نفسه وإن لم يفهم لما يرى سبباً فركض إلى الباب ليتحقق الأَمر بنفسه فوجده مغلقاً فأمرها أن تفتحه

فأبت فهجم عليها هجمة شديدة وهو يصيح : أين المفتاح أيتها العاهر ؟ فقالت : أتريد أن تقتلني كما قتلت أبي بالأمس ؟ فلم يفهم معنى كلمتها ووقف في مكانه ذاهلا يقول لها لم أفهم من أمرك شيئاً ماذا تريدين ؟ ومن هو أبوك ؟ قالت هو المسيو كاپريني وكيل مصرفك بالأمس الذي اتهمته ظلماً وعدواناً بالسرقة وأنت تعلم أنه رجل شريف مستقيم لو علم أن شرب الماء يفسد مروءته ما شربه . فكانت نهاية أمره أن مات في سجنه ميتة الأشقياء البؤساء لا يعوده من أهله عائد ، ولا يحتضنه إلى صدره في ساعته الأخيرة محتضن ، ولا يوجد بجانب مضجعه من يسمع منه آخر كلماته

فاصفر وجه لورين وظل جسمه يرتعد ارتعاداً شديداً وأخذ يحدّق النظر في وجهها ويتراجع شيئاً فشيئاً ويقول بصوت مضطرب متقطع إذن أنت لستِ . . . . فقاطعته وقالت نعم لست حبيبتك « لوسى » كما تعتقد بل عدوتك « إيلين » التي تريد أن تنتقم منك لفجيعتها في أبيها وفي نفسها ، أنا إيلين التي جثت تحت قدميك منذ ستة أعوام تسألك أن ترحم أباها وترحمها فأبيت إلا أن تساومها في عرضها فلما ضنَّت به عليك أردت النكاية بها فاتهمتها بتهمة القتل كذباً وافتراءً كما صنعت بأبيها من

قبلها فصدق القضاة الاغبياء دعواك فحكموا عليها بالسجن خمس سنوات كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام مالا يستطيع أن يحتمله بشر ، ثم خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شيء فى العالم ، من بيتها وأهلها وكرامتها وشرفها وكل ماتملك يدها، حتى من القوت الذى تقيم به صلبها بياض يومها وسواد ليلها، وكان لابد لها من المغامرة بنفسها فى إحدى الهوتين، إما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة وآلامها، أو هوة الفساد لتنتقم لنفسها من عدوها الذى نكبها وأفسد عليها حياتها ، فآثرت الانتقام على الموت، لان نفسها الطاهرة الطيبة قد استحالت إلى نفس شريرة حاقدة لا تريد أن تسمح لعدوها أن يبنى سعادته على أنقاض شقائها وأن يُفلت من العقوبة التى هى النتيجة الطبيعية لجميع الذنوب والآثام، وهاهى قد انتقمت لنفسها وروَّحت عنها همومها وآلامها

فنكَّس رأسه ملياً ثم رفعه وقال إذاً ما أحببتنى قط يالوسى؟

قالت نعم ، بل ما اتصلتُ بك إلا لأَسوقك إلى هذا المصير الذى صرت اليه اليوم ، أنت الآن متألم جداً ، بل لا يوجد فى العالم كله ألم مثل الالم الذى يعتلج فى أعماق نفسك ، لانك فقدت فى يوم واحد شرفك وكرامتك ومالك وحريتك وموضوع حبك ووجهة آمالك فى حياتك ، وهذا ما كنت أريده وأرجوه، وهذه

هى الساعة الوحيدة التى شعرت فيها بلذة العيش وهنائه من بين جميع ساعات حياتي

فنظر اليها نظرة متضعضعة دامعة وقال : ما كنت لأَحفل بخسران شيء فى الحياة لو أننى ربحتك يالوسى ، أمّا وقد أصبحتْ يدى صِفراً منك فلا خير فى العيش من بعدك ، ثم تهافت على مقعد بجانبه وانفجر باكياً ما تهدأ دموعه ولا يفتر نشيجه حتى حضر الجند فاعتقلوه وساقوه الى سجنه وهو صامت واجم لا يرفع طرفه ولا يلتفت وراءه وإيلين تشيعه بنظرات السرور والاغتباط حتى انقطع أثره

٥

نعم إن الانتقام لذيذ جداً كما يقولون ، ولكنه اللذة التى يعقبها الندم والاسف وتأتى على أثرها الحسرات والآلام ، وما استطاع منتقم قط أن يزن عمله بميزان العدل والحكمة فتهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تهدأ نفس القاضى العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التى يراها ، والفرق بينهما أن القاضىَ يَصدر فى رأيه عن نفس هادئة مطمئنة مستمسكة قادرة على الروية والاناة والمقارنة والمقابلة والوزن والتقدير ، والمنتقمَ

يَصدر فى عمله عن روح هائجة محتدمة لا همّ لها إلا أن تلتهم وتستأصل وتأتى على كل ما تستطيع الاتيان عليه ، فهو يقضى قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريمته ، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وآثامه ، بل ليجرح نفسه ويؤلمها وينال منها أقصى ما يرى أنه كاف لشفاء حقده وإطفاء غلّته ، فيجازى على الشتم بالضرب ، وعلى الضرب بالقتل ، وعلى القتل بالتشويه والتمثيل ، ولا يأبى أن يأخذ البرىء بذنب المجرم ، والجار بذنب الجار ، فالانتقام جريمة كيفما كان الباعث عليه والدافع له ، وكل جريمة تترك فى نفس صاحبها نصيباً من الألم والحسرة بمقدارها ، ما من ذلك بد . ولقد صدق الذى يقول إن العفو مرارة ساعة ثم السعادة إلى الابد ، وإن الانتقام لذة ساعة ثم الشقاء الدائم الذى لا يفنى

عادت إيلين إلى غرفتها بعد ذهاب « لورين » وكان الليل قد أظلها فجلست تراجع فهرس حياتها الماضية وتقلب صفحاتها صفحة صفحة فشعرت بدبيب السآمة والملل فى نفسها وخيل اليها أنها ستعيش بعد اليوم عيشة تافهة مملولةً لا طعم لها ولا لذة فيها . ورأت كأنّ سحابة سوداء من شقاء الحياة وبؤسها تدنو منها شيئاً فشيئاً ، وأخذت تسائل نفسها هل أصابت فيما فعلت أم أخطأت ؟ وهل سعدت بالانتقام أم شقيت ؟ وهل كان خيراً لها أن تلقىَ

بنفسها فى عباب الماء عند ما فكرتْ فى ذلك يوم خروجها من سجنها ؟ أم تعيشَ لتضحى عرضها وشرفها وكرامتها فى سبيل انتقامها ؟ وهل خرجت من المعركة التى خاضتها ظافرة تمام الظفر ؟ أم نالها من الخسران فيها ما يذهب ببهاء ذلك الانتصار الذى انتصرته ؟

ولم تزل تسائل نفسها هذه الاسئلة فلا تسمع جواباً يرضيها حتى مضى الليل إلا أقله فحاولت أن تأوى إلى مضجعها فلم تستطع وأن تسرِّى عن نفسها بعض َهمومها فأعجزها ما أرادت ، فلم تنقضِ دولة الظلام حتى كانت قد حكمت بنفسها على نفسها أنها مجرمة آثمة ، وأنها لم تستفد شيئاً من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الاثمان وأدناها ، وأنها لم تسىء إلى الرجل الذى أرادت الانتقام منه بقدر ما أساءت إلي نفسها ، فعزمت على الالتحاق بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها حتى يوافيها أجلها

٦

دخلت المستشفى وأخلصتْ إلى الله فى عملها فسهرت على المرضى وأحسنت مواساتهم وبذلت فى ذلك من الجهد ما يعجز

غيرها عنه حتى أصبحت مضرب المثل فى صلاحها وتقواها ورحمتها وإحسانها

وكانت المحكمة قد حكمت على المسيو لورين بالسجن عامين فلقى فى سجنه من المتاعب والآلام ما لا طاقة لمثله باحتماله فسقط مريضاً لا يحفل به أحد ولا يواسيه مواس حتى اشتد به المرض وأشرف على الهلاك فنقلوه إلى المستشفى التى كانت تُمرِّض فيها «إيلين» فعرفته حين رأته رغم تغير صورته واستحالة حالته فلم تستطع أن تملك عينيها من البكاء ثم حنَت عليه وأخذت نفسَها بتمريضه والعناية به وهو ذاهل مستغرق لا يشعر بشىء مما حوله حتى استفاق فى بعض الأَيام فرآها واقفة بجانب سريره تمد اليه يدها بالدواء فظل يحدق النظر فى وجهها طويلا حتى عرفها فتناهض من مكانه وأكبَّ على يدها يقبلها ويسألها العفو عن ذنبه إليها فازداد نشيجها وبكاؤها وقالت له إنى أنا التى أسأت إليك وأنا التى أطلب منك العفو والصفح ، وكأنّ حياتها الجديدة التي انتقلت اليها حياةَ الصلاح والبر قد أنستها حياتها الاولى وأكاذيبها وأباطيلها فلم يبق فى قلبها أثر للبغض ولا للحقد، وأصبحت سريرتها سريرةً بيضاء نقية لا تجول فيها غير خواطر الخير والاحسان ولا تنطوى على غير حب الانسانية وحب الله

وكذلك ظلت تعالج هذا المسكين باخلاص لا تضمر مثلَه الام لواحدها وتقوم على خدمته ليلها ونهارها ما تهدأ ولا تفترُ ولكن الداءَ كان قد تمكن منه فلم يغنِ عنه العلاج شيئاً ، وماهى إلا أيام قلائل حتى حضره الموتُ فجلست بجانبه تعزيه وتواسيه وتُلقى فى نفسه أن الله قد غفر له جميع سيئآته فى حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام والهموم والآلام ، وأن جوار الله فى دار جزائه خير له من جوار هذه الحياة الباطلة الفانية حتى أسلم روحه بين ذراعيها

وفى صباح اليوم الثاني رآها الناس سائرة بهدوء وسكون فى طريق الدير وقد لبستْ مُسوحها وسوادها وعلقت صليبها على صدرها حتى بلغتْه ففُتح بين يديها بابه العظيم الذى لا يخرج منه داخله إلى الأبد فدخلته وكان ذلك آخر عهدها بالعالم وما فيه

ما اجمل هذه

الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبدَ الله بن الزبير نعيُ أخيه مصعب ابن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه ثم سكت فجعل لونه يحمر مرة ويصفر أخرى فقال رجل من قريش لآخر بجانبه ماله لايتكلم فوالله إنه للخطيب اللبيب ، فقال له الرجل لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتدّ ذلك عليه وغيرُ ملوم إن جزع

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول فى حفلة تأبين أخيه فتحى باشا زغلول وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة فاختنق بالبكاء وأُرتج عليه وهو الرجل الجلد الشجاع الذى ما جزع فى حياته قط والخطيب المفوه الذى ما أُرتج عليه مرة فى أصعب المواقف وأحرجها وأذهبها بالعقول والالباب ، فما أشبه هذا البطل الباكى بذلك البطل الجازع

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه أنفة وإباء حتى إذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التى

لا أمر فيها إلا لله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضنون به من قبل

على أن البكاء الذى حال بين سعد باشا وبين كلمته التى أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين فى ذلك الموقف وأنطقهم، فقد خطبَ الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر فى النفوس أنْ كان السامعون يتهامسون فيما بينهم بالاعجاب بفصاحة الفصيح أو نباهة المؤرخ أو بلاغة الشاعر أو إبداع المبدع فى معانيه أو إحسان المحسن فى القائه حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكى الناس جميعاً لبكائه كباراً وصغاراً شيوخاً وشباناً وكان مشهداً مؤثراً لم نر مثله فى حفلة تأبين قبل اليوم، فكان لتلك الخطبة القصيرة الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم من الأثر فى النفوس مالم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال

ليس الذى يبكى صديقاً كان يأنس بحديثه أو عالماً كان ينتفع بعلمه أو كريماً كان يستظل بظلال مُروءته وكرمه كمثل الذى يبكى شَظيّة طارت من شظايا قلبه

اللفظ والمعنى

لم أر فيما رأيت من الآراء فى قديم الادب وحديثه أغربَ من رأى أولئك القوم الذين يفرقون فى أحكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون كلا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر ، فيقولون ما أجملَ أسلوبَ هذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطة مرذولة ، أو ما أبدعَ معانىَ هذه القطعةِ لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب، كأنما يخيل اليهم أن اللفظ وعاء ، وأن المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء ، فتارة يكون خمراً ، وتارة يكون خلا ، ويكون حيناً صافياً ، وأخرى كدراً ، والوعاء باق على صورته لا يتغير ، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها ، والخمر بنشوتها ، فكما لا يجوز أن نقول ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها ، ولا ما أعذب الخمرة وأمرّ نشوتها ، كذلك لا يجوز أن نصفَ اللفظ بالجمال ، والمعنى بالقبح ، أو نعكسَ ذلك ، فليعلمِ الناشئُ المتأدب انه ليس للفظ كيانٌ مستقل بنفسه ، فجماله جمالُ معناه وقبحُه قبحُه ، وأن القطع الأَدبية التى نصف أسلوبها بالجمال انما

نصف بذلك معانيها وأغراضها، وأن الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معانٍ شريفةٍ عالية كاذبون فى زعمهم أو واهمون

لا يضطرب اللفظ الا لأن معناه مضطرب فى نفس صاحبه، ولا يَغمُض إلا لان معناه غامض في نفسه، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام، ولا المتأثر عن التأثير، ولا المقتنع عن الاقناع، وما البيانُ الا المرآة التى ترتسم فيها صورة النفس، فحيث تكون النفس جميلة فهو جميل، أو قبيحةً فهو قبيح، أو مضيئةً فهو مضىء، أو مظلمةً فهو مظلم. فاذا استطعنا أن نتصور مرآة تكذبُ فى تمثيل الصورة الماثلة أمامها، استطعنا أن نتصور بياناً يختلف فى وصفه عن وصف نفس صاحبه

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة

ولما قضينا من مِنًى كل حاجة
وَمسّح بالاركان من هو ماسح
وشُدت على حدب المهارَى رحالنا
ولم يعلم الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

أنها جميلة الاسلوب ولكنها تافهة المعنى مرذولته لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير ، كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه من أجمل المعانى وأبدعها، بل هو رأس المعاني وسيدها والغاية الاخيرة منها ، وقد رَسم الشاعر فى كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج فى حلهم ومرتحلهم يسمعها السامع باذنه وكانه يراها بعينيه . فقد أتى بأجمل المعانى فى أجمل الاساليب

وإنّ وصفاً قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف

وتلفتتْ عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

لخيرٌ ألف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعانى الغريبة والخواطر المبتكرة التى لا تمثل الحقيقة ولا تلتئم مع النفس ومزاجها كقصيدة المتنبى التى مطلعها « أيطمع فى الخيمة العذل »

ويقولون أيضا عن هذا البيت

أنّى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

أنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى، وهم واهمون فيما يقولون، فان ذلك المعنى الجميل الذى يتوهمونه ليس معنى هذا البيت ، بل المعنى الذى خطر على أذهانهم وانبعث فى أفئدتهم عند سماعه ، فألصقوه به إلصاقا وتوهموه له توهما ، أما البيت نفسُه فلا معنى له

مطلقاً، وهذا شأن جميع المعانى التى يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مستغلق أو كلمة غامضة، فهى بأن تكون معانىَ السامعين، أولى من ان تكون معانىَ القائلين

إذا سمعت بيتاً من الشعر فأطربك أو أحزنك أو أقنعك أو أرضاك أو هاجك وأنت ساكن، أو هدأ روعك وأنت ثائر، أو ترك أي أثر من الآثار فى نفسك كما تترك النغمة الموسيقية أثرها فى نفس سامعها، فاعلم انه من بيوت المعانى، وان هذا الذى تركه فى نفسك من الأثر هو روحه ومعناه، وان مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه وثقل عليك ظله وشعرت بجمود نفسك أمامه وخيل اليك أنك بين يدي جثة هامدة لا روح فيها فاعلم أنه لا معنى له ولا حياة فيه، فان وجدتَ صاحبه واقفاً بجانبه يحاول ان يوسوس لك أن وراء هذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نوراً متوهجاً يكمن فى طياتها فكذّبه وفر بنفسك وأدبك وذوقك منه فراراً لا عودة لك من بعده

هذا هو الميزان الذى يجب ان تزن به الكلام، ونصيحتى إليك ألا تصدق تعريفاً واحداً من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة التى يضعها واضعوها من الأدباء لأشعارهم خاصة لا للشعر عامة، واجعل شعور نفسك هو الميزان الذى تزن به ما تسمع،

فكما انك لا تعتمد على تعريف من تعريفات الجمال ولا تلجأ الى قانون من قوانينه عندوقوع نظرك على وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن ، كذلك لا تعتمد فى استحسان ما تستحسن من الكلام واستهجان ماتستهجن الاعلى شعور نفسك وإلهام حسك

***

الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء ثم يأتى بعد ذلك جمال الوصف وحسن التصوير وتمثيل الحقيقة واستخراج أسرار الكون وتحليل مشاعر النفس وأمثال ذلك من الأغراض والمقاصد على أن تكون تلك النغمة الموسيقية أساسها والروح السارية فيها ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة ، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها وحججها وبراهينها ، والشعر غذاء النفس برناته ونغماته وأهازيجه ونبراته

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الى اليوم فمات جميع ما نظموا ولم يبق منه الا البيت الموسيقى الرنان الذى لو لم يغنه مغنيه لغنى وحده ، وسيموت شعر جميع الشعراء فى هذا العصر ولا يبقى منه فى المستقبل الا كما بقى من الماضي فى الحاضر

الآداب العامة

يتحدث كثير من الناس عن فئة من المصريين المتعلمين قد ظهروا فى هذه الايام واتخذوا لانفسهم فى حياتهم العامة طريقاً غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم وشرفه فأصبحوا متبذلين فى شهواتهم، مستهترين فى ميولهم، ينتهكون حرمات الاعراض ماشاءوا وشاءت لهم نزعاتهم وأهوائهم، ويعبثون بها فى كل مكان عبث الفاتك الجرىء الذي لايخاف مغبة ولايخشى عاراً، وأهول مايتحدثون به عنهم فى هذا الشأن أنهم يغرون الفتيات الطالبات اللواتي لا يزلن يختلفن إلى مدارسهن أواللواتى انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن وينصبون لهن صنوف الحبائل وأنواع الاشراك لاصطيادهن وإسقاطهن فى هوة الاثم والعار، وهذا ما أريد أن أتكلم عنه قليلا

أصحيح ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسون أنكم تتخذون صلة العلم التى هى أشرف الصلات وأكرمها صلة فساد بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات، وأن الحبالة التى تنصبونها لهن

لاصطيادهن إنما هى حُبالة القلم الذى هو أفضل أداةٍ للخير وأعظم وسيلة للفضيلة وخير واسطة للأدب والكمال ؟

أصحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن اليكم وتهدون اليهن صوركم ليهدين اليكم مثلها فاذا امتلأتْ حقائبكم وجيوبكم بصورهنّ ورسائلهن أخذتم تنشرونها فى كل مكان وتعرضونها فى كل معرض وأخذ بعضكم يفاخر بعضاً بكثرة ما يملك منها أو جماله أو رونقه كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال ؟

أصحيح انكم تقفون لهن بكل طريق وتأخذون عليهن كل سبيل وتضايقونهن فى مغداهن ومراحهن وحيث ذهبن إلى عمل، أو خرجن لزيارة، أو برزن فى مجتمع، فاذا عجزتم عنهن فى الطريق أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن، وربما توسلتم اليهن باخواتكم وبنات أعمامكم ليَسفرن بينكم وبينهن ويداخلْنهن مداخلة الاصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم ؟

أصحيح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام وتهذيبها وتنقيحها وأكثرَ أيامكم حُوّماً حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم لأَنفسكم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها أو جلوساً على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون

نوافذها وكواها عليها تتفرج لكم عمن تحبون ؟

أصحيح أنكم أصبحتم لا تقنعون فى أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن فى مخالبكم بافساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلا موقَّعاً عليه بتوقيعاتهن مستشهَداً عليه بصورهن وخطوطهن لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك وتحُولوا بينهن وبين التفلُّت من أيديكم والحياةِ بعيداً عنكم فى جو غير جوكم وجوار غير جواركم عذاري أو متزوجات ؟

أصحيح انكم لا تكتفون بافساد نفوسهن وضمائرهن حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن فتشركوهن معكم في شرب الخمر وتناول المخدرات سائلها وجامدها فلا تلبث أن تنتهى حياتهن بما تنتهى به حياة جميع النساء الساقطات اللواتي يلفظن أنفاسهن الأخيرة فى أقبية الحانات أو بين جدران المواخير ؟

أصحيح انكم فقدتم فى تلك السبيل التى تسلكونها خلق الرجولة والشهامة فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء وتزدلفون اليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن وأصبح الرجل منكم لا هم له فى حياته الا أن يتجمل فى ملبسه ويتكسر فى مشيته ويرقق من صوته ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور ويقضى الساعات الطوال أمام مرآته متعهداً شعره

بالترجيل وبشرته بالتنضير وثناياه بالصقل والجلاء حتى صار ذلك عادة من عادتكم التي لا تنفك عنكم وحتى سرى التأنث من أجسامكم إلى نفوسكم فلم يبق فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الاسماء والألقاب

إن كان حقاً ما يقولون كله أو بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين وسلام على الفضيلة والشرف سلام من لا يرجو عودة ولا ينتظر إيابا

إن هذه الفتاة التى تحتقرونها اليوم وتزدرونها وتعبثون ماشئتم بنفسها وضميرها إنما هى فى الغد أم أولادكم وعماد منازلكم ومستودع أعراضكم ومروآتكم ، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غداً وكيف يكون مستقبل أولادكم على يدها

أين تجدون الزوجات الصالحات فى مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم ؟ وفى أي جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوثتم الاجواء جميعها وملأتموها سموماً وأكداراً ؟

لا تتكون أخلاق الفتاة تكونا صحيحاً فى طفولتها أو كهولتها أو شيخوختها ، بل فى عهد شبابها، فاذا سلم لها ذلك العهد سلم لها كل عهد بعد ذلك ، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوعرة من مراحل

حياتها شريفة طاهرة تجدوا فيها بعد قليل من الزمان خير زوجة للزوج وخير أم للولد وخير سيدة للمنزل

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلا لتستطيعوا أن تجدوها غداً زوجة طاهرة شريفة فى منازلكم بدلا من أن تجدوها فتاة ساقطة مزدراة مطرّحة على أعتاب المواخير والحانات

لا تزعموا بعد اليوم انكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات يحفظن لكم أعراضكم ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلكم فتلك جناية أنفسكم عليكم، وثمرة ماغرست أيديكم، ولو انكم حفظتم لهن ماضيهن لحفظن لكم حاضركم ومستقبلكم، ولكنكم أفسدتموهن وقتلتم نفوسهن، ففقدتموهن عند حاجتكم اليهن

انى لا أفزع فى أمركم الى القانون فالقانون فى هذا البلد مدنى لا أدبى، ولا الى الحكومة فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها، ولا الى الدين فقد ضعف شأنه فى نفوسكم حتى هان أمره عليكم، ولا الى آبائكم وأولياء أموركم، فقد عجزوا عنكم وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم، بل أفزع فى أمركم الى ضمائركم التى هى الامل الباقى لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم، فاصغوا الى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذى نرفعه اليكم،

وصوتُ الضمير أقوى من كل صوت فى العالم

أصغوا اليه تسمعوه يقول لكم « ان هؤلاء الفتيات اللواتى لا تستحيون أن تمدوا اليهن أعينكم وأيديكم انما هن أخواتكم الحميمات يجمعكم واياهن أب واحد وهو النيّل وأم واحدة وهى البلد ، وشرف الإخوة هو الملجأ الأمين لاعراض الأَخوات »

يجب أن لا ينفتح قلب الفتاة لأَحد من الناس قبل ان ينفتح لزوجها لتستطيع ان تعيش معه سعيدة هانئة لاينغّصها ذكرى الماضى ولاتختلط فى مخيلتها الصور والأَلوان . ولاأعرف فتاة فى هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت ان تتمتع بعده بحب شريف

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذى أهدت اليه حبيبته رسمها موقعاً عليه بتوقيعها فلما تزوجت وكان لا يحب منها ذلك أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك الطريقة الفنيّة المعروفة ثم أرسلها مع كتاب وشاية الى زوجها ليلة عرسها فما لبثت أن خسرت فى لحظة واحدة سمعتها وسعادتها

وحدثنى من أثق به ان كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن الا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهداً أمام أصدقائهن على

أن يكنّ لهم بعد الزواج ، أى بعد أن يصبحن مطلقات من قيود العُذرة وروابطها ، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل الاوردت عليه ليلة البناء بها أو صبيحتها كتبُ الوشاية بها والسعاية من الاشخاص الذين أحبتهم وأخلصت اليهم فانتهى أمرها فى حياتها الجديدة بالشقاء والعار

نحن في حاجة الى ان نعلم بناتنا، لاننا لانريد ان يعشن جاهلات متأخرات، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون ليستطعن ان يختلفن الى مدارسهن آمنات مطمئنات على أنفسهن وأعراضهن، ولا تزعجوهن بفضولكم وإسفافكم فاننا لم نبعث بهن فى تلك السبيل ليُفسدن شرفهن وعفتهن، بل ليضفن الى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العقل والعلم

أفسحوا الطريق لهن وللعاملة الخارجة فى طلب رزقها ، والارملة المسترزِقة لبنيها ، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها ، والذاهبة لصلة رحمها ، والسائرة لزيارة قبر فقيدها ، ولا تكونوا حجر عثرة فى سبيل حرية المرأة وعملها واضطرابها فى مذاهب الارض سعياً وراء رزقها وقضاء حقوقها ، فان أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها الالداء المتوحشون ، لانكم تأبون

عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين، إما الجهل الدائم أو السقوط العظيم

الفضيلةَ الفضيلةَ أيها القوم! فهي العزاء الوحيد لهذه الامة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها، والامل الباقي لها إن ضاعت لا قدر الله جميع آمالها وأمانيها، والشرفَ الشرفَ! فربما جاء يوم لا يبقى لنا فيه شيء سواه

قطعة من صميم الحياة

المؤتمر الاسلامى

سرنى منظر ذلك الرجل [1] العظيم والداعى الكريم وهو قادم الى مصر يتخطى البلدان ويطوى الغبراء، طى الكواكب الخضراء، يقوده الامل ويسوقه الرجاء، وبين جنبيه همة عالية ونفس كبيرة وقلب مشيّع وفؤاد فى الافئدة كالنسر فى الطير، يحلق فى جو الاسلام تحليق من يحاول أن يظلله بجناحيه

سرنى منظره وان لم أره وهو قائم بين جماعة المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم، ويلم شعثهم، ويجمع كلمتهم، ويؤلف بين قلوبهم، ويدعو الى الله تعالى دعوة النبوة الأولى، إلا أن تلك عربية تدعو الأعجمية، وهذه أعجمية تدعو العربية الفصحى

هنا ذكرت الاسلام ومجده، والاسلام وجنده، والاسلام ودولته، والاسلام وصولته، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل

(١) كتبت لمناسبة حضور المصلح الاسلامى الشهير اسماعيل بك غصبر نسكى الروسى الى مصر فى سنة ١٩٠٨ للدعوة الى مؤتمر اسلامى عام

الردة ويقول : والله لو منعونى عقال بعير لقاتلتهم عليه، وذكرتُ عمر وهو واقف فى مرابض المدينة فى حمارّة القيظ يستقبل شبحاً أسود يرفعه الآل ويخفضه ، ويبديه الأديم ويخفيه ، حتى اقترب منه فتبينه فاذا هو أعرابى قادم من سواد العراق فجعل يسايره وهو راجل ، والاعرابي راكب لايعرفه ، وجعل يسأله ما فعل الله بسعد وجنده؟فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمدائن ، وما أفاء الله به على المسلمين من عرش كسرى، وذخائره وتراث مرازبته ودهاقينه ، وعمر لاهٍ عن نفسه سروراً بما سمع وفرحا بما تم

وذكرتُ صلاح الدين وهو يقود الجحفل اللجب ، والجيش العرمرم ، إلى حيث يستنقذ الثغور ويستخلص الامصار ، ويخوض جمرة الحروب المتأججة ليفتدى بنفسه أجساما ان لم تلتهمها النيران فكأنْ قد ، وذكرت محمداً الفاتح وهو يلعب بكرة الارض لعب الصبى بكرته،ويخترق بسفائن البحر رمال القفر ، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من السماء ، وسجد فى معبد آيا صوفيا سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه ، وذكرت صقر قريش وقد طار بمفرده من الشرق إلى الغرب،فأنشأ وحده دولة خضعت لهـا أفريقيا وبعض أوربا ، وذكرت مع أبطال

الحرب أبطال السلم ، فذكرت عمر بن عبد العزيز وعدله ، والمأمون وفضله ، والغزالى وحكمته ، وابن رشد وفلسفته ، ومعاوية وسياسته ، وعبدالملك وكياسته ، وذكرت مدارس بغداد وبخارى والاسكندرية والقاهرة وغرناطة واشبيلية وقرطبة ، وذكرت مترجمى كتب أقليدس وبطليموس وارسطو ، وواضعى علوم الجبر والمقابلة والكيمياء ، وذكرت مخترعى البندول والبوصلة « بيت الابرة » والساعة الدقاقة التى أهداها الرشيد الى شارلكان ملك فرنسا ففزع منها سامعوها فزعا شديداً وسموها شيطانا رجيما أو آلة سحرية أو مكيدة عربية ، إلى كثير من أمثال هذه الآثار العربية والمفاخر الاسلامية

ثم ذكرت الاسلام اذ ضربه الدهر بضرباته ورماه بنكباته فأصبح أثراً من الآثار ، أوخبراً من الأخبار ، وعليلا حار فيه أطباؤه ، وملّه عواده ، وظل متراوحا بين داهيتين ، ومترجحاً بين غايتين ، إما أن يموت موتة أبدية وبالله العياذ ، أو يحيا حياة مادية لاحياة أدبية ، وينهض جامعة تجارية لا جامعة إسلامية ، مادامت المادة قاعدة الحكومات ، وما دامت الحكومات عدوة الأديان ، وما دامت الأديان لاتبلغ غايتها الا فى فضاء من الحرية لايبلغ البصر أطرافه ، لذلك أحزننى عند سماع خطبة الخطيب

مايحزنُ الاشيبَ من ذكرى الشباب إذا عثر بين أوراقه البالية على رسائل الحب وأناشيد الغرام ، وأمضّ مايمض العاشقَ المفارق ، إذا مر بالآثار ، واطلال الديار ، فرأى النؤْى والاحجار ، وموقد النار ، ومجال الخيول ، ومجر الذيول ، فذكر ما كان ناسياً ، وهاج من وجده ما كان كامناً ، فبكى واستعبر

ووَدَّ بجدع الانف لو عاد عهدها   وعاد له فيها مصيف ومربع

الجاهليتان

ليست الجاهلية الأولى بأحوج الى الاصلاح الدينى من الجاهلية الاخرى ، بل ربما كانت هذه أحوج من تلك اليه

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها الى الله زُلفى، وجاهلتنا تعبد الاحجار والاشجار، والاحياء والأموات، والابواب والكوى ، والقواعد والاعمدة، تبركا أو تقربا ، لفظان مترادفان ، مختلفان لفظا ، متفقان معنى ، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه

كانت الجاهليــة الأولى متفرقة قبائل وشعوبا ، وجاهليتنا متفرقة منازل وبيوتا ، بل آحاداً وأفراداً ، فلا تراحم ولا تواصل ، ولا تعارف ولا تعاطف ، حتى بين الاخ وأخيه ، والاب وبنيه

كانت جاهليتهم تسفك الدماء فى طلاب الأوتار ، وجاهلتنا تسفكها فى سبيل السرقات وقضاء الشهوات ، وكان أفظع ما فى جرائمهم وأد البنات ، فصار أخف ما فى جرائمنا الانتحار ، وكان بعضهم يبغى على بعض بسرقة ماله، أو استياق ماشيته، ففعلنا مثل ما فعلوا وفوق ما فعلوا ، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الأوراق

وتحريف الصكوك وتقليد الاختام والبراعة فى النصب والاحتيال، يكاد يستوى فى ذلك العالم والجاهل والشريف الهاشمى والفلاح القروى

وليتنا إذ أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هى رذائل وفضائل فيهون على المصلحين أمرها ، ولكنا أسأنا الاختيار ، فلنا خرافاتهم الدينية ، وأدواؤهم الاجتماعية ، وليس لنا كرمهم ووفاؤهم، وغيرتهم وحميتهم ، وعزتهم ومِنعتهم ، فكيف لا يكون الامر خطيراً ،وكيف لا تكون الجاهليـة الاخرى أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الاولى

نبئنى عن الاسـلام أين مستقره ومكانه ، وأين مسلكه ومضطَربه،وفى أى موطن من المواطن حل،ومَعهد من المعاهد نزل، أفى الحانات والمواخـير التى يغص بها الفضاء ، وتئن منها الارض والسماء ، والتى ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهـم بلا خجل ولا حياء ،كأنما هم يشربون الماء الزلال ، ويغشون البِضع الحلال ، ولقـد هان عليهـم أمر أنفسهم حتى لو وجدوا بينهـم من يرى البُقيا فى عمـله أو التجمل فى أمره سموه جبانا جامداً ،أو متكلفاً بارداً ، كل ذلك على مرأى ومسمع من الحـكومة الاسلامية والمعاهد الدينية والقضاءين الشرعي والنظامي

أم فى حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح والغبن الفاحش، مزخرفا بالأقوال الكاذبة، والايمان الباطلة ؟

أم فى مجالس الاحكام حيث للدينار الاحمر السلطان الاكبر على سلطان العدل وسلطان الذمة وسلطان الشرائع، اللهم الا ما كان من تلك الالواح المكتوب فيها (العدل أساس الملك) أو (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ؟

أم فى المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كانت الفترة بين الصلاتين مائة عام وكانت تلك الاعوام مملوءة بالاثام والجرائم، والمفاسد والمظالم، لكفت تلك الحركات التى يسمونها صلوات، ويحسبونها حسنات، لغفران تلك السيآت ؟

أم فى معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسما بلا روح، وعلما بلا عمل، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الداثرة، أو أحد الاديان الغابرة، وحيث يتلقون كشكولا عجيبا وخلقا غريبا من الاكاذيب والترهات، فلا تكاد تسمع من أفواههم الا حديثا موضوعا، أو قولا مصنوعا، أو خرافة تاريخية، أو بدعة دينية، وحيث يقضون حياتهم فى المناظرات والمجادلات، والتحاسد والتباغض، والتقاطع والتدابر، وهي بعينها الاخلاق والرذائل التى ماجاءت الاديان الا لمحاربتها والقضاء عليها، فهم يهدمون من حيث

يظنون انهم يبنون ، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ،

أم فى مجالس المتصوفة حيث الالعاب الجمبازية ، والحركات البهلوانية ، والسرقات باسم العادات ، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات ؟

إن أراد المصلحون لانفسهم نجاحا وللاسلام صلاحا فليبدءوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية وتربية النشء الحديث تربية اسلامية لاتربية مادية ، أى انهم يدخلون الى الاصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة ، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم ، ودنياهم وآخرتهم ، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب ، والمعلم والمهذب ، والاسلامُ وان كان دين العقل والفطرة والتهذيب والاصلاح ألا أن الخطر كل الخطر على المسلمين أن يكون فى نظرهم تابعاً للعقل وأن يكون العقل هو الحكم بينهم وبينه ، والخير كل الخير فى أن يكون الدين حاكما ، والعقل مفسراً ومبيناً ، فاذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة ، والحكمة والسياسة ، فقد تم لهم كل شىء ، وتم للمسلمين مايريدونه من الجامعتين الدينية والسياسية ، كما تم لهم ذلك فى العهد الاول من هذا الباب نفسه وفى هذا الطريق المستقيم ، فهل يستطيع

الشيخ محمد عبده

بين العلماء

ما قام عظيم من العظماء فى أمة جاهلة متأخرة يحاول اصلاح ما فسد من أمرها وعلاج ما عضل من دائها والأخذ بضبعيها والانافة بها على اليَفاع والنهوض بها من أرض الجمود والموت الى سماء الحركة والحياة الا انقسم أفرادها فى شأنه قسمين ضرورةَ انقسامهم الى أغبياء وأذكياء ، ففريق وهو الأكثر عدداً وجهلا والأقل ادراكا وفهماً أطفأ الله نور عقله وأقام بين بصيرته وبين الحق حجاباً كثيفاً من الجهل والجمود يعترض نفاذها ويسد سبيلها فلا يزال نائماً فوق قديمه نوم الشحيح على ماله كلما سمع نأمة غريبة وأحسّ نبأة لم يعرفها من قبل فزع قلبه وطار طائر لبه وصاح صياح المرور المختبل «قديمى قديمى» فلا يزال قديمه هذا قيداً فى رجليه يمنعهما من الحركة والانطلاق وسدّا فى أذنيه يحجب عنهما نداء الحق وغشاوة فى عينيه لا يرى من دونها غير الظلام المتكاثف

وسلاحا فى يديهِ يحارب بهِ ذلك المصلح الذى يريد بهِ خيراً مما يريد بنفسه وأنى لهُ بعد أن نال منهُ قديمه ما نال أن يرى ويسمع فيعلم ماهذا الذى يُدعى اليهِ أخيرهو أم شرّ ، وفريق آخر وهو الأقل عدداً والأوفر ذكاءً وعقلا يدعى الى الحق فيجيب ويقاد الى الخير فيتبع لم تفسده عصبية ولم تقعد بهِ همجية ولم تضق به بصيرته أن يتبين عند بزوغ فجر الدعوة بياض الحق من سواد الباطل ، أولئك هم أعوان المصلح وأنصاره لا يزال الحرب سجالا بينهم وبين أعدائه حتى يصنع الله لهم فيقذف بالحق على الباطل فيدمغهُ فاذا هو زاهق

وعظيم الأمة الاسلامية ومصلحها اليوم هو سيد العلماء وواحد الأتقياء الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، وما منّ الله على هذه الأمة فى كثير من قرونها الماضية كما منّ عليها به اليوم ولا ابتلى عظيم من العظماء فى أمته كما ابتُلى في هذه الأمة هذا الرجل العظيم الذى نظر اليها نظر الطبيب الحاذق الى عليله ، فرأى بُعد ما بين سابقها ولاحقها وانقطاع ما بين حاضرها وماضيها فعلم أن داءها داء دوىّ وبلاءها بلاء عظيم ورأى أجزاء جسمها تتحلل الى ذرات ثم تتلاشى ورأى صفرة الموت تجول فى وجهها وأغربة الفناء تحلق فوق رأسها

وقد أوشكت أن تملأ الفضاء نعيباً ، فلم يكد يملك نفسه من البكاء على أمة ضربها الدهر بضرباته ورماها وهى محلّقة فى سماء عزها ومجدها بسهم نفذ مابين جنبيها فهوت من مدار الاجرام، الى مقر الرغام ، تشكو فلا تجد مشتكى ، وتستغيث فلا ترى مغيثاً ولا معيناً ، فراعه من أمرها ما راعه وكاد ينقطع خيط الرجاء فى قلبه لولا أن وهبه الله نفساً قوية وعزيمة ثابتة وجناناً لا تحوم حوله الاوهام ولا تأخذ منه نكبات الايام، وأودع مابين جنبيه قلباً مصوغا من الشفقة والرحمة، فنظر فى حال هذه الامة البائسة نظر العاقل البصير وتلمّس موضع دائها وسبب سقوطها فوجد أن داء أدوائها وعلة عللها إغفالها أمر دينها الذى عرفه سابقوها وعلقوا بحبله فكان سرّ ارتقائهم وتقدمهم وعلوهم فوق علياء الاكاسرة والقياصرة وامتداد فتوحاتهم فى قليل من السنين الى مالم تمتد اليه يد من قبل ، وأهملتهُ هى فودعها مجدها وفارقها عزها ووصلت الى حيث تضرب بذلتها الامثال وحيث أصبحت أُكلة الآكلين ، ونهبة الطامعين ، وعلم حفظه الله أنه ان صلح لها دينها صلح لها كل شئ من آخرتها وأولاها فأخذ نفسَه بالدعوة الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة مخلصاً لله فى عمله مستعيناً بحوله وقوته مصدقاً وعده فى قوله سبحانه وتعالى

والذين جاهدوا فينا لنهـديهم سبلنا وقوله تعالى ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم

هذا هو الشيخ محمد عبده وهذه هى مقاصده ومذاهبه فما الذى تنقمون منه أيها العلماء الأعـلام كما يلقبكم غوغاؤكم أو كما تلقبون أنفسكم ، وما هذه الضجة التى سددتم بها منافذ الفضاء ، وما هذه الثائرة التى طمستم بها وجه السماء ، وما هـذه النار التى تتأجج فى صدوركم من البغضاء ، ومتى كان عهدكم بلعن فرعون وهامان فتلعنوا رجلا هو أصدقـكم ايمانا وأثبتكم يقيناً وأكرمكم خلقاً وأعلاكم همة وأشرفـكم نفساً وأعفكم لساناً ويداً وخـيركم لنفسه وللناس، أنسيتم يوم « هانوتو » يوم وقف أمامه وقوف الشجاع المستبسل يذود عن دينه ودينكم ويناضـل دونه حتي قهر قرنه وأطفأ فتنة كادت تحترق فى نار شبهاتها ألوف من المسلمين وأنتم صامتون مستسلمون لا تحيرون جوابا ، أنسيتم كتابه الاسلام والنصرانية الذى انتصف به للاسلام من أعـدائه فرضى به الله والمسلمون ، وخرست به ألسنة الجاحدين المتخرصين ، أنسيتم رسالة التوحيد التى أظهر فيها الدين الحنيفى جوهراً خالصاً ممحصاً من شوائب البدع والخرافات التى شوهتم بها وجهه أنتم وأمثالـكم فلما رآها مسيحي أوروبى قال (ان كان الاسلام كما وصفه الشيخ

محمد عبده فى رسالته فأنا مسلم منذ اليوم لولا انى أخاف ان يكون الرجل قد خدعنا ببلاغته) فقد عرف المسيحى الأعجمى من شأن الرسالة مالم تعرفوا، وأدرك من فضل صاحبها مالم تدركوا، ومن قابل بين هذه القصة وقصة رسالة الرد على هانوتو يوم ذهب ناشرها بنسخ منها ليقدمها الى مشيخة الأزهر فأبت قبولها بحجة أن كاتبها قد أثم باهتمامه بشأن الرد على رجل من القوم الكافرين رأى منظراً عجباً ونادرة من أغرب النوادر مارأى قبلها الراؤون ولا سُجل مثلها فى تواريخ الماضين، أنسيتم مقامه فيكم سنين عدة يعلمكم أخلاق العلماء وما يجب عليهم فى عفة أيديهم وطهارة أنفسهم والعلو بأنفسهم عن مواطن الذل والضيم والنبوّ بها عن مظان الشبه والريب ويرشدكم كيف تؤدون وظيفتكم التى عهد الله بها اليكم والتى هى أوسع ميداناً وأفسح مجالا من جلستكم جلسة الذليل الضارع وراء أعمدتكم الحجرية تختلفون اليها صباح مساء حتى تموتوا فتموت معكم آثاركم وأعمالكم فلا أنتم فى دنياكم تذكرون، ولا أنتم فى أخراكم تؤجرون، ولو أراد الله بكم خيرا لوفقكم الى اتباع سبيله والاهتداء بهديه والتأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه فهى ملاك السعادة ومناط العزة وملتقى

خيرى الدنيا والدين ، ولكنها الاقدار يسعد بها أقوام ويشقى بها آخرون ومن يضلل الله فما له من هاد

انكم والله ما تنقمون منه زيغاً فى عقيدة ولا سعياً فى فساد كما تزعمون ولا يعنيكم حرم الربا أم حل ثبتت الشفاعة أم لم تثبت قام الدين أم قعد فنحن أدرى منكم بكم وأعلم بمنزلة الدين والفضيلة من نفوسكم وانما عز عليكم أن تروا بجانبكم رجلا نبت فى تربتكم ودرج من عشكم واستقى من وردكم الذى منه استقيتم ثم ما لبثت الايام أن دارت دورتها فاذا هو شمس تتلألأ فى سماء المجد والشرف بما وهبه الله من علم واسع وبصيرة نافذة تكاد تخترق حجب الغيب ونفس سماوية محصتها الفضيلة فلم تعلق بها الرذائل ولا طارت حوله المفاسد والاطماع وذكر بعيد تردده الاقطار ، وتتهاداه الامصار ، وجلال تطأطئ له الهامات وتغضى من مهابته الابصار ، وحب مبرّح تنعقد عليه قلوب الملايين من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، واذا أنتم لا تزالون فى أرض خمولكم لاصقين بها لصوق الحسد بصدوركم ، فثقل جواره عليكم ، وألهب منظره نار الغل والحقد فى أفئدتكم ، حتى لوددتم لو افتديتم أنفسكم من جواره بجوار مالك فى الجحيم وقد فعلتم

عواطف البنين

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهذا الانسان الذي يغضب الغضب كله إذا أحس أن مخادعاً يخدعه في شأن من شؤونه وهو يخدع نفسه بنفسه في جميع ساعاته ولحظاته

حضرت تمثيل رواية عواطف البنين في دار التمثيل العربي وعرفت أن الشيخ سلامه ليس هو الكونت دي موراي وأن الممثلة «ميليا» ليست الكونتس زوجته وأنها لم تطرد من منزلها ولم تُتهم في عرضها ولم يمر بخاطرها الحزن على هجر زوجها أو فراق ابنتها ، وعرفت أن الممثلة «متيل» ليست فتاتهما ، وأن الهم لم يقسم فؤادها شطرين شطراً لأبيها وشطراً لأمها ولكنني خدعتُ نفسي ورثيت لمصاب تلك الأسرة الكريمة وحزنت لحزنها حزناً لم أملك معه دموعي التي طالما غلبتها في أحرج المواقف على أمرها حتى غلبتني في أهون المواقف على أمري

إن نفسي أعز عليّ من كل شيء في هذه الحياة ، فهيهات أن أخدعها أو أصور لها من الوهم شبحاً يحزنها أو خيالا يبكيها ،

وإنما خدعنى هؤلاء الممثلون البارعون فقد طاروا بى في فضاء الخيال ومازالوا يأخذون على نظرى حتى محوا صورهم الحقيقية من ذاكرتى فلم أر أمامى غير زوج حزين وزوجة مظلومة وفتاة تبكى على أبويها بكاء الحزين إثر الحزين

الممثل البارع هو الذى يستطيع أن يتجرد من نفسه وأن يتقمص شخصاً غير شخصه حتى يكاد ينكره عارفوه، وكذلك كان شأن هؤلاء الممثلين فى رواية عواطف البنين ، فقد أجاد كل منهم تمثيل دوره المحزن المؤثر وبلغ من الاحسان الغاية التى لا غاية وراءها ، حتى رأيت العيون شاخصة والأنفاس معلقة والدموع مرسلة وحتى خيل إلى أنى أسمع خفقان القلوب بين الجوانح

أما الرواية فانها تشتمل على عبر كثيرة أذكر منها ما يأتى

(١) لا يستطيع أن يبلغ الانسان منزلة الوفاء إلا إذا لقى فى هذا السبيل شقاء كثيراً وعذاباً أليما

(٢) المرائى يبنى بيته على شفير هار فلا يكون بينه وبين الانهيار إلا أن تهب عليه بعض العواصف المجتاحة

(٣) إن الذى يلد ولداً فى غير مهده يجنى عليه جناية كبرى لانه يرمى به فى بحر زاخر لا يقوى على السباحة فيه ولا يرى حوله من يمد له يداً لنجاته أو يسوق إليه

زورقاً لخلاصه لأنه لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد ، فهو إما أن يعيش طريد الهلاك ، أو يموت فريسة الأسماك

(٤) لو علمت المرأة أن ساعات السرور التى تقضيها مع عشيقها ستنقلب فى مستقبل الأيام أعوام حزن عليها وعلى عشيرتها لما سئمت الوحدة فى مضجعها ولا استوحشت لانفرادها فى غرفتها ولا لذَّ لها أن تطلب هذا الانس الكاذب والسرور الموهوم

هذه عبرة الرواية وهذا مبلغ تأثيرها فى النفوس ، فشكراً للكاتب ما كتب وللمعرب ما عرب وللممثل ما مثل

الرشوة

كان المرحوم الشيخ محمد عبده يقرأ فى مسجد الازهر درساً عنوانه التفسير وحقيقته البحث فى كل ما يتعلق بالمرء فى حياتيه الآخرة والاولى ، فكان الرجل فى ذلك الدرس مفسراً للقرآن وراوياً للحديث ومعلماً وواعظاً بل كان كل ما يستطيع امرؤ أن يكون

ولقد حدثنا فيما كان يرويه لنا فى دروسه من وقائعه ومشاهده أنه ركب القطار فى إحدى لياليه كعادته إلى بلدته « عين شمس » فلم يستقرّ بهِ المقام فى مجلسه من القطار حتى وقف أمامه شيخ معمم ملتح فسأله ماذا يريد فقال له أنا ياسيدى من طلاب الامتحان فى الازهر وقد جئتك أطلب اليك أن تساعدنى عليه ، قال إن كنت تريد أن أساعدك بمنع الظلم عنك فاعلم أنى لا أترك يداً تمتد إليك بظلم ، قال يا سيدى أنا رجل فقير وإنك لن تجد أحداً هو أحق بالاحسان منى ، قال لو كنت طالب احسان لما منعتك شيئاً مما أقدر عليه ولكنك على ما أظن

تريد مني أمراً جللا ليس في استطاعتي أن أمنحك إياه ولو استطعت ما تركت أحداً يمكنك منه ، إنك تريد أن أكون شاهد زور في قضيتك هـذه وما كانت شهادة الزور في وجه من وجوهها حسنة من الحسنات ، إن في الازهر خمسمائة طالب مثلك يتقدمون للامتحان ، فان منحتك الشهادة من دونهم فأين العدل ، وإن منحتكم جميعاً فأين الامتحان

وما وصل الشيخ من حديثه إلى هذا الحد حتى وصل القطار الى المحطة فنزل وترك الرجل مكانه فما مشى إلا قليلا حتى شعر بمشيته وراءه فالتفت إليه وقال له إنك قد فهمت كل ما يمكنني أن أقوله لك وكفى ، فاقترب منه وقال له إن معي هدية يا سيدي أريد أن أقدمها إليك وأن تتفضل بقبولها ، ففهم الشيخ غرضه وأراد العبث به فقال كم تريد أن تعطيني ، قال ثلاثين جنيهاً ، قال ذلك قليل ، قال سأعطيك ثلاثين أخرى عن صاحب لي يريد منك ما أريده ورجاؤنا اليك يا مولاي ألا تقسو علينا فنحن قوم فقراء ، وأنت من القوم المحسنين ، وهنا غضب الشيخ غضبته المعروفة ونظر الى الرجل شزراً وقال له يا شيخ إنني إن احتملت منك كل شيء فانني لا أستطيع أن أحتمل من طالب من طلبة الشريعة الاسلامية أن يسمى الرشوة وفساد الذمة إحساناً وكرماً ، ثم حمل عليه بعصاه وضربه

ضربة ولى من بعدها على عقبه إلى حيث لا مطمع فى أوبته

قص علينا الشيخ رحمه الله هذه القصة فى درسه ولم يذكر لنا من شأن الرجل ولا من صفاته ما يدل عليه ، ثم أطرق برأسه واستمر على ذلك ساعة خيل لنا فيها أنه يكاتمنا دمعة تترقرق فى عينيه ثم رفع رأسه وأنشأ يتكلم بنغمة محزنة مؤثرة ما تركت فى مكامن المحاجر دمعة إلا أسالتها وقال

لقد خضت غمرات هذه الحياة وما بلغت العشرين وهاءنا قد نيفت اليوم على الخمسين ولا اعلم أنى طمعت فى يوم من أيام حياتى فى شىء مما زواه الله عنى كما لا أعلم أنى نظرت إلى زخرف هذه الحياة وزبرجها نظر المتشهى المتمنى الذى يشتد فى أثرها عدواً ويقتل نفسه وراءها صبراً ، ولقد مرت بى فى كثير من أيامى الماضية ساعات كان لى فيها من الدالة على أصحاب هذا المصر وأربابه وذوى الجاه والسلطان فيه ما يملأ بيتى فضة وذهباً ورحابى عبيداً وخولا لو ابتغيت السبيل إلى ذلك ، فعافت كل ذلك نفسى ولا أكتمكم أنى كنت أعالج من مجاهدة هذه الشهوات ومدافعتها ما يجب أن يعالجه كل من نشأ منشئى بين قوم شرهين طامعين ، وكنت أحسب أن قد انتشر لى بين الناس من الذكر بالعفة والشرف وإباء النفس ماثلج به صدرى

وتطمئن اليه نفسى ، فلما رأيت من حال هذا الرجل أمس ما رأيت علمت أنه لايزال يوجد فى الناس من يظن بى ظن السوء ويتوهم أني من سفلة الناس وجهلائهم الذين لايطلبون الوظائف إلا ليرتشوا ولا يرتشون إلا ليظلموا

لقد مرت على هذه القصة سنون عدة والله يعلم أنى أصبحت لاأسمع بواقعة من وقائع الرشى التى اسودت بها رقعة الارض واحمر لها وجه السماء إلا ذكرتها فأجم وجوم الحزين المتألم وأتماسك تماسك المتجلد المتثبت إبقاء على مدامعى أن يستثيرها الحزن فيرسلها ولله الامر من قبل ومن بعد

١٥

حكم القوة

أكتبوا يا أنصار سعدٍ عرائض الثقة به عشرات ومئات وألوفاً وعشرات الألوف فان ذلك لايجديكم نفعاً ولا يغنى عنكم شيئاً لان القوة أصدرت حكمها بأنكم من أنصار الحكومة وأوليائها

ألفوا الوفود العظيمة من جميع مدنكم وقراكم وعزبكم وكفوركم حتى يبلغ مجموع عددها ثلاثة عشر مليوناً وتسعمائة وتسعة وتسعين ألفاً فأنتم جميعاً حمقى لاقيمة لكم ، ولا عبرة برأيكم ، ولا يوجد فيكم عاقل ولا رشيد غير تلك الألف الواحدة التى تخلفت عنكم، وانفصلت عن صفوفكم

املأوا الأرض صراخاً وعويلا بالشكوى من الافتيات عليكم فى أمركم الخاص بكم وبمستقبل حياتكم وحياة أولادكم وأحفادكم فان رجلا فضولياً من رجالكم لا شأن له ولا قيمة هو الذي عبث بعقولكم وأغراكم بهذا السخط والغضب والصراخ والعويل ، ولو أنه ترككم وشأنكم لاستحال بكاؤكم ضحكا وابتهاجاً ، وخوفكم وقلقكم سكونا وارتياحاً ،ولأسلمتم بلدكم الى أعدائكم راضين مغتبطين

اجمعوا جموعكم الهائلة فى أى مكان تريدون واهتفوا بجميع مايمر بخواطركم من أمانيكم الوطنية ورغباتكم القومية حتى تبح أصواتكم وتنشق حلوقكم فأنتم فى نظر الساسة الانكليز لصوص مجرمون ماخرجتم مخرجكم هذا الا لسرقة الحوانيت ونقب الجدران واختطاف الامتعة من أيدى المارة وتكدير صفاء الناس والاخلال بالأمن العام

لا تتركوا وسيلة من الوسائل تعلمون أنها تعبر عن مشاعركم وخوالج نفوسكم الا واتخذوها وتذرعوا بها فهى جميعها مظاهر كاذبة ومناظر تمثيلية لان القوة قد حكمت بذلك ، وحكم القوة هو الحكم العادل الشريف الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

هذا هو مايجرى الآن فى جو مصر ، وهذا ما سيجرى فى جوها غداً مابقيت الوزارة فى مركزها أوخلفتها وزارة مثلها اقتطعت السياسة الانجليزية قطعة صغيرة من الضعفاء عن الوفد والامة وسمتها (الامة) بعدان عجزت عن ذلك عامين كاملين : فهي تتعهدها بالعناية والرعاية وتحوطها بالصور والتهاويل تعظيما لشأنها وتفخيما لأمرها وتصقل في كل يوم صفحتها وتجلوها ليكون لها بريق يخطف الابصار ويختلب الانظار — تفعل

ذلك كله لتتخذها تكأة تتكئ عليها فى الثقة بالمفاوضين الرسميين اليوم والتصديق على المعاهدة المنتظرة غداً ، وما هى إلا رواية واحدة تعرض فصولها على مسرح التمثيل فصلا فصلا حتى ينزل الستار على الفصل الأخير منها

أما الامة نفسها فهى فى نظر الصحف الانكليزية أقلية ضعيفة جداً أو مجموعة خاملة بلهاء لا عقل لها ولا فكر ، فان نطقت فنطقها مصطنع ، وإن بكت فبكاؤها مكذوب ، وان احتجت فاحتجاجها عصيان ، وان صاحت فصياحها ثورة ، وان صمتت فصمتها تسليم واذعان ، وإن رفضت أن توقع على صك شقائها فلا قيمة لرفضها أو قبولها ، لأن الأمة شىء سواها

آه ماذا نعمل ، لقد بحت أصواتنا وحفيت أقدامنا ونضبت محابرنا وجفت أقلامنا فى سبيل الشكوى من هذا الحال فلم نجد راحماً ولا معيناً حتى من أبناء وطننا الذين يفهمون لغتنا ويدركون شعورنا ويحسنون قراءة البؤس والألم المسطور على جباهنا ، كأن العالم كله ألبٌ علينا وكأنْ قد سدت من دوننا أبواب السماء فلا تصعد شكوى ولا ينفذ دعاء

ولقد كنا نستطيع أن نحمل انفسنا على الرضا بما قدره الله لنا فى مستقبل حياتنا لو أن ذلك الذى يراد بنا لا يجرى

باسمنا ولا يطبع بطابعنا فتستمر حجتنا قائمة مادامت الارض أرضاً والسماء سماء ، ولكن من لنا بالراحة وهدوء النفس واستقرارها وهاهى وفود الثقة بالحكومة تفد اليها من جميع أنحاء البلاد ،وهاهى عرائض تأييدها ونصرها تملأ دفاترها وسجلاتها ولا يعلم غيرنا طريقة التوقيع عليها

*
* *

وعدتنا الوزارة بالنزول على رأينا فى مبدأ تأليفها فلم تفعل، فاقترحنا عليها إشراك وفدنا معنا فى العمل فاعتذرت، فطلبنا منها التخلى عن مركزها فأبت ، فسألناها عقد الجمعية الوطنية لأَخذ رأيها فى اختيار المفاوضين الرسميين فامتنعت ، فسألناها أن تذهب للمفاوضة باسمها لا باسمنا والا تجعل ثقتنا بها أساس مفاوضتها فرفضت

لقد سدت السبل علينا جميعها ، وانقطع الرجاء بنا ، ولم يبق بين أيدينا إلا رجاء واحد هو أن نمد يد الضراعة الى إخواننا الخارجين علينا من أعضاء الوفد وغيرهم قائلين لهم : الرحمة الرحمة أيها الاصدقاء بأنفسكم وبأمتكم فنحن جميعاً أبناء وطن واحد تقلنا أرض واحدة وتظلنا سماء واحدة فعودوا إلى صفوفنا وضعوا أيديكم فى أيدينا فلا سبيل لعدونا أن ينال منا قُلامة ظفر إن أنتم عدتم الينا ، ولا يوجد

شئ فى العالم كله يحول بينه وبين إهلا كنا جميعاً ان بقيتم خارجين علينا

تعالوا الينا لنسعد معاً ان قُدرت لنا السعادة فى مستقبل حياتنا أو نشقى معاً إن كانت الاخرى ، بل لنعيش سعداء فى كلتا الحالتين، فلا سعادة فى الدنيا غير سعادة الحب والسلام، ولا شقاء غير شقاء الانقسام والانشقاق

اننا لا نتهمكم بخيانة ولا ممالأة لان الدم المصرى لا يحمل بين كراته كرة اللؤم والغدر ولكننا نعتقد انكم مخدوعون وانكم ما أُتيتم من ناحية الخيانة والممالأة بل من ناحية السذاجة والبساطة وضعف القلب وغرارة النفس والثقة العمياء بوعود أولئك القوم الذين ما صدقوا فى وعد من وعودهم مرة واحدة ، ولا عجزوا عن أن يجدوا من يصدقهم فى كل مرة يكذبون فيها، فالوعود سلعتهم التى يتجرون فيها، والخلف ربحهم الذى يربحونه منها

ولو أنكم روأتم فى الامر قليلا ونظرتم إلى المسألة بعيونكم لا بعيونهم لعلمتم أن لا استقلال هناك ولا شبه استقلال ولا شىء مما يعدوننا به ويمنوننا ، وكل ما فى الأمر انهم يريدون وضع الحماية الرومانية موضع الحماية الانكليزية ، وهى التى كان يبسطها الرومان

فى تاريخهم القديم على الامم الضعيفة باسم المحالفة والمعاهدة ، أى انهم يريدون أن نصدق لهم على الحماية التى بسطوها علينا فى سنة ١٩١٤ بعد أن عجزوا عن ذلك سبعة أعوام ، ونحن لا نريد أن يكون حظنا معهم حظ ذلك الرجل الذى انتزع منه بعض المغتصبين آنية فضية فذهب اليه ليستردها منه وهدده برفع أمره إلى الشرطة إن لم يفعل ، فقال له لا أعطيك اياها حتى تكتب لى صكا بان الآنية هدية منك الىّ حتى آمن غدرك بى فيما بعد ، فكتب له الصك الذى أراد وأعطاه إياه ، فاحتفظ بالصك ولم يعطه الآنية

تعالوا أيها الأصدقاء إلى صفوفنا ولا تصدقوا أن أعداءنا يعطوننا متفرقين ما يعطوننا مجتمعين ، فان كان لابد لنا من أن نستمر فى مفاوضتهم وكان قد بقي لنا شىء من الامل فيهم فلنذهب اليهم جميعاً صفاً واحداً تحت قيادة قائد واحد نلقى اليه قيادنا ، ونمنحه نصرنا وتأييدنا ، فان نجحنا فذاك ، وإلا فحسبنا من الفخر والشرف أننا أول أمة شرقية قد نجت من حبائل المستعمرين ومكائدهم

*
* *

سيكتب التاريخ صفحاته غداً والتاريخ لا يجامل ولا يحابى ولا يقبل هوادة ولا عذراً ولا يصدق كلمة واحدة من هذه

الكلمات التى تعتذرن بها اليوم عن أنفسكم ، ولا يستطيع أن يكتب إلا أن الامة المصرية كانت يداً واحدة وقوة واحدة ، ولم يكن بينها وبين نجاحها فى قضيتها الا أيام قلائل نخرجتم من صفوفها فانتقض عليها أمرها وأفلت النصر من يدها ، فاحذروا أن يكتب التاريخ عنكم هذه الكلمة المخزية، واتقوا يوماً يَفتح فيه أولادكم وأحفادكم هذه الصحيفة السوداء من تاريخكم فيطرقون حياء وخجلا حينما يرون أن هذه الاسماء التى يقرأونها انما هى أسماء آبائهم وأجدادهم

الى خصوم سعد باشا

١

سعد باشا خصم السياسة الانجليزية فى مصر وعدوها الألد ما فى ذلك شك ولا ريب ، فجميع خصومه السياسين من المصريين أصدقاء لتلك السياسة وأعوان لها على أمتهم

هذا الذى أستطيع أن أفهمه ويفهمه الناس جميعاً ، ولا فرق عندى بين أن توضع فى عنقى جامعة أُقاد بها الى دار المارستان لأقضى فيها بقية أيام حياتى وبين أن أفهم غير ذلك

فاشتموا يا خصوم سعدٍ سعداً ما شئتم، وتفننوا فى النيل من كرامته ما أردتم ، فلا معنى لذلك عندنا إلا أنكم آلة صماء فى يد السياسة الانكليزية ، تتولون بالنيابة عنها زحزحة العقبة الكبرى التى تعترض طريقها وتعرقل مساعيها ، وتقف سداً حائلا دون تنفيذ تلك الفكرة الجهنمية الهائلة ، فكرة تسجيل الحماية الانكليزية على مصر ، واحلفوا بالله جهد أيمانكم أنكم وطنيون مخلصون ما خلق الله بين أرضه وسمائه خلقاً أطهر قلباً ولا أنقى سريرة ولا أنبل مقصداً منكم ، وأنكم لا تريدون بما تفعلون إلا خير الوطن وأهله ، وهناء الأمة وسعادتها ، فليس

بمغنٍ عنكم عندنا شيئاً ، لأن الوطنى لا يحارب الوطن ولا يبتغى له الغوائل ، ولا ينصب الحبائل لهدمه وإسقاطه

دعوى الوطنية كلمة بسيطة تصدر من الفم بسهولة ، كما يتنفس المتنفس ويتنهد المتنهد ، وقد نطق بها جميع الناس فى مصر حتى «سكينة» مجرمة الاسكندرية ، فقد زعمت أنها إنما كانت تخدم الوطن بقتل النساء العاهرات ليعتبر بمصرعهن الحرائر الشريفات فلا يسقطن فى مثل ما سقطن فيه ، فهى دعوى محتاجة دائماً الى برهان ، وبرهانها الوحيد الذى نستطيع أن نتعقله بلا تكلف ولا تعمل ولا فلسفة ولا حذاقة هو مجافاة السياسة الانجليزية والانحراف عنها والتجهم لها وسلوك كل طريق غير طريقها ، وما دمتم متفقين معها فى اعتبار سعد باشا خصماً سياسياً خطراً يجب هدمه وإسقاطه فأنتم أعوانها وأنصارها ومحال أن تكونوا أعواننا وأنصارنا

السياسة الانجليزية تخنق الحرية السياسية فى مصر وتضرب على أيدى الكاتبين وألسنة الناطقين وعقول المفكرين ، وتأبى إلا أن تسوق الناس جميعاً فى طريق السياسة التى ترضاها لنفسها ، وسعد باشا يحتج كل يوم على ذلك ويصرخ الصرخات المزعجات التى ترجف

لها جوانب الارض وتهتز لها أركان السماء، وأنتم سكوت صامتون، لا تحتجون ولا تغضبون، فهو الوطنى المخلص من دونكم

بيننا وبينكم أمر واحد إن أنتم فعلتموه نلتم ما شئتم من حبنا ورضانا وإكرامنا وإجلالنا، ونزلتم من نفوسنا المنزلة التى ينزلها الوطنيون المخلصون، هو أن تعقدوا اجتماعاً عاماً تكتبون فيه احتجاجاً شديد اللهجة الى الحكومة الانجليزية على بقاء الأحكام العرفية فى مصر حتى اليوم، وعلى القوانين الاستثنائية وقانون المطبوعات، وتقييد حرية الخطابة والكتابة، ومنع المظاهرات السامية والاجتماعات السياسية، واعتبار الوطنية جريمة تعاقب عليها المحاكم العسكرية والنظامية، ثم تختمون احتجاجكم بهذه الكلمة « إنا لا نقبل مفاوضة سياسية تجرى بين فريقين، أحدهما سجين فى سجن مظلم ضيق لا يستطيع التنفس فيه ولا الحركة، والآخر سجان قاس مستبد يجرد على رأسه سيف القوة والقهر ويملى عليه ما يريد ويشتهى »

هذا هو البرهان الوحيد الذى تستطيعون أن تقنعونا من طريقه بوطنيتكم وإخلاصكم لأمتكم ووطنكم، وأنكم قوم أحرار أُباة متشبعون بروح العدل والشرف

فان لم تفعلوا فائذنوا لنا — ولنا العذر الواسع فى ذلك —

أن نعتبركم أعداءنا وأعداء حريتنا واستقلالنا ، وأن نتمسك بالاخلاص للرجل الذى يذود عنا ويجاهد فى سبيلنا ويحارب ظالمينا

أتدرون متى نتخلى عن سعد باشا ونخذله ونرتاب فى صدقه وإخلاصه ؟ يوم ترضى عنه السياسة الانجليزية، وتذود عنه الصحف الانكليزية ، وتثنى عليه الدوائر الانكليزية ، وتدافع عنه القوة الانكليزية، وتستحيل نفسه إلى نفس انكليزية يحس باحساسها ويشعر بشعورها ، ويتحرك بحركتها، ويسكن بسكونها، ويوم تضمه الحكومة الانجليزية إلى صدرها ، وتحنو عليه حنو الوالدة المشفقة على طفلها الصغير، معتقدة أن حياتها فى حياته، وموتها فى موته ، ومادام سعد باشا باقياً فى صفوفنا لم يفارقنا ولم يتخل عنا، فمن الخبل والسفاهة وسقوط النفس أن نفارقه ونتخلى عنه ، فان عجز عن أن ينفعنا بشىء فى قضيتنا فلا أقل من أن يشفى غليلنا بتنغيص ظالمينا، ولا شىء فى العالم ألذ للنفوس ولا أشهى اليها من تنغيص الظالمين

ليست الفضيحة أيها القوم أن يعلم أعضاء مجلس النواب الانجليزى أن رجال الادارة المصرية لا أرادة لهم أمام السلطة الانجليزية وسيطرتها كما تقولون، فليس فى العالم كله لا فى انجلترا ولا في غيرها من بلاد العالم من يجهل ذلك أو يستنكره ، انما الفضيحة الكبرى

أن يعلم الناس عنا أن السياسة الانجليزية قد استطاعت أن تضحك على ذقوق فئة من عظماء المصريين ووجوههم ، وتتخذ منهم عصا حديدية تضرب بها الوحدة المصرية وتمزقها، وأن جماعة من الذين كانوا يعبدون سعداً بالامس ويقدسونه قد أصبحوا اليوم يشتمونه وينالون من كرامته لا لشيء سوى أنهم يدورون مع القوة حيث دارت ، ويسيرون وراء المصلحة حيث سارت

أنتم تعلمون أن اليـد الانجليزية الخفيـة هى التى تدير شؤون مصر السياسية والادارية والقضائية منذ أربعين عاماً ، وتقهر رجال حكومتها من وزرائها إلى خفرائها على تنفيذ أوامرها والخضوع لسياستها ، ولم يطرأ حتى اليوم طارئ جديد يغير هذا النظام ويبـدله ، ولولا ذلك ما شكونا ولا تألمنا ولا نهضنا لطلب الحرية والاستقلال، بل ولا سافرت البعثة الرسمية فى المهمة التى سافرت فيها ، وتعلمون أن تلك اليد القاهرة هى التى تولت أمر اغتصاب الثقة بالوزارة الحاضرة وقهرت رجال الادارة على الاشتراك معها فيها تمهيداً للاتفاق المنتظر الذى تريد أن تلبسه صورة الرضا والاختيار من أساسه إلى ذروته ، كما هو شأنها فى سياستها دائماً ، وكما هى قاعدتها التي تجرى عليها فى جميع أعمالها

فدفاعكم عن رجال الادارة فى هـذه المسألة إنما هو دفاع عن السياسة الانجليزية نفسها وتبرئة لذمتها من سوء النية والقصد فى ادارة الشؤون المصرية ومساعدة لها على أن تَجرى فى مسألة الانتخابات المقبلة للجمعية الوطنية على مثال الطريقة التى جرت عليها بالامس فى مسألة العمال المتطوعين . من حيث لاتعلق بها تهمة ، ولا يتجه اليها لوم ولا عتاب ، فأنتم لم تغضبوا لرجال الادارة ولا لسمعة مصر والمصريين كما تزعمون ، بل تخافون أن تمثل السياسة الانكليزية فى تنفيذ المعاهدة المنتظرة فتتخلى القوة عنكم فتصبحوا أمام الأمة وجها لوجه، وما أضمرتم بين جوانحكم من البغضاء لسعد باشا لانه أهان رجال الادارة أو جرح عواطفهم بل لأَنه الزعيم الوطنى الوحيد الذى يستطيع أن يفسد كل سياسة خبيثة يراد بها اغتصاب رضا المصريين واستخذائهم لتلك الكارثة العظمى التى تسمونها استقلالا لاشك فيه، وتسمونها حماية لاريب فيها

ماذا تنقمون من سعد باشا أيها القوم ، وأى جناية جناها عليكم في أنفسكم أو فى أمتكم فتحملوا له بين جوانحكم هذه الموجدة وهذه البغضاء !

ليس سعد باشا هو الذى اغتصب بلادكم واستأسر أوطانكم وأذل أعناقكم وأرغم أنوفكم وخنق الحرية السياسية

فى مجامعكم العامة ومجالسكم الخاصة فما يستطيع أن ينطق ناطق ولا أن يكتب كاتب إلا إيماء وتعريضاً

ليس سعد باشا هو الذى لعب بعقول فريق من أعضاء الوفد وأغراهم بالانفصال عن الجامعة الوطنية والخروج عليها ليتوصل بذلك إلى تمزيق شمل الامة وتفريق وحدتها، وليس هو الذى استثمر بدسائسه ومكائده طمع الطامعين وجبن الجبناء وغباوة الاغبياء ليستعين بهم على خراب وطنه ودماره

ليس سعد باشا خصمكم ، بل خصومكم أولئك الذين يغرونكم به ويسلطونكم عليه ، لانهم يعلمون أن الأمة لاتفلح بغير زعيم ، وأن لا زعيم فيها يغنى غَناءه ويسد مكانه ، فان ظفروا به فقد ظفروا بالأمة جميعها وحلوا العقدة التى عجزوا عن حلها أربعين عاماً ، فحولوا سهامكم إلى خصومكم ، ووجهوا ضرباتكم إلى المرقب الذى تتساقط منه السهام عليكم

ارحموا أُمتكم ولا تثيروا حفيظتها باهانة زعيمها ونصيرها الباقى لها بعد تخلى جميع أنصارها وأعوانها عنها ، ولا تنتهزوا فرصة ضعفها وعجزها فتدفعوها إلى إحدى السوأتين ، إما الغضب الذي ليس من مصلحتها ، وإما الذل الذي فوق طاقتها ، واذكروا

كيف يكون شأنكم غداً أمام أنفسكم وأمام ضمائركم إن تمت لأعدائكم الغاية التى يرومونها من مصر على أيديكم ، لا قدّر الله ولا سمح ، بل كيف يكون بكاؤكم وعويلكم على وطنكم وبلادكم حينما تستيقظون من رقدتكم وتستفيقون من سكرتكم فتعلمون أن العدو قد اقتحم البلد وأنكم أنتم الذين فتحتم له أبوابه بأيديكم

الى خصوم سعد باشا

٢

والله لا ندرى ماهى دالتكم علينا وصنيعتكم عندنا ونعمتكم التى قلدتم بها أعناقنا فتطلبوا إلينا كل يوم فى خطبكم وبياناتكم ورسائلكم وكل ما تهتف به ألسنتكم وأقلامكم أن ننفضّ من حول سعد باشا ونلتف من حولكم، ونخذله وننصركم، ونفارق طاعته الى طاعتكم !

لسعد باشا على الأمة ثلاث أياد لا نستطيع أن ننساها مدى الدهر : أنه أسس الوحدة المصرية التى عجزت عنها القرون الثلاثة عشر الماضية ، وأنه نقل الفكرة الوطنية من دور الأمانى والأحلام إلى دور الجد والعمل ، وأنه نشر الدعوة الوطنية فى أنحاء العالم كله حتى وجدت فيه مسألة تسمى « المسألة المصرية » إن لم تتحقق فيها الآمال اليوم فغداً ، فماذا قدمتم أنتم إلينا من الخدم وقلدتم به أعناقنا من المنن ؟

هبونا كما تزعموننا قوماً سُذّجاً بسطاء طائشى العقول

والاحلام لا نستطيع أن نعيش بغير معبود نعبده ونخنع له ، أليس من الطبيعى والمعقول أن نفضل عبادة الشمس التى نرى نورها ونشعر بحرارتها ونتمتع بضيائها على عبادة الحشرات التى لا نكاد نشعر بوجودها، ولا نرى لها فائدة فى شؤون حياتنا ؟

من أنتم أيها القوم، وأى شأن لكم عندنا، وما هى الصلة النفسية التى تجمع بيننا وبينكم، وأين مواقفكم التى وقفتموها فى خدمة قضيتنا ، وأين صحائفكم التى شغلتموها من تاريخ بلادنا، وما الذى يغرنا بكم ويبهرنا من شؤونكم لنعبدكم ونستسلم إليكم ونضع فى أيديكم قيادنا وقياد حاضرنا ومستقبلنا ؟

إنا نعرفكم جميعاً بأشخاصكم وأعيانكم ونعرف جميع ميولكم وأهوائكم والجهة التى تتجهون إليها دائماً فى شؤون حياتكم، والسياسة التى تظاهرونها وتمالئونها مذ برزتم الى الوجود حتى اليوم، ونعرف أنكم ذلك الفريق الذى يعثر به المستعمر دائماً فى كل أمة يريد القضاء عليها فيستعين به على أغراضه ومآربه لا أكثر من ذلك ولا أقل ، فكيف تطمعون فى أن نتخذكم زعماء لنا فى سياستنا ، بل كيف تطمعون فى أن نعدكم مصريين تشتركون معنا فى شعورنا واحساسنا

سعد باشا يبنى الوحدة الوطنية وأنتم تهدمونها ، سعد باشا يحارب خصومنا ويناوئهم وأنتم توالونهم وتظاهرونهم ، سعد باشا يبكى دماً يوم يستشهد شهيد منا فى سبيل وطنه وأنتم تشمتون به وتفرحون وتقولون هـذا جزاء المخاطرة والمجازفة ، سعد باشا يثير الثائرة كل يوم على الاحكام العرفية والقوانين الاستثنائية وأنتم ترضون عنها بل تؤيدونها بل تشتركون فى وضع موادها ، سعد باشا يريد أن تتطهر الادارة المصرية من رذائل الـكذب والنفاق والظلم والارهاق وأنتم تغرونها بارتكاب هذه الرذائل جميعها وتمالئونها عليها وتغضبون وتصخبون كلما شعرتم أن يداً من الأيدى تحاول زحزحة الستار عنها ، سعد باشا يصيح فى جميع مواقفه ومشاهده يجب أن يكون الشعب حراً مطلقا يختار لنفسه السياسة التى يريدها وأنتم تصيحون يجب أن يساق الشعب الى السياسة التى ترأدمنه لأنه شعب جاهل منحط لا يفهم مصلحته ولا يستطيع تقديرها ، سعد باشا يصادق الأحرار من أعضاء مجلس النواب الانكليزى ليستعين بهم على حكومتهم الاستعمارية وأنتم تصادقون أعضاء تلك الحـكومة انفسهم لتستعينوا بهم على استعباد أمتكم وإرهاقها ، سعد باشا يربى الأمة على الفضيلة وشرف الخلق ويبث فيها روح الهمة والعزيمة والأنفة والصدق

والصراحة والشرف والاباء وأنتم تفسدون أخلاقها وتمزقون أديم آدابها وتطلبون من القاضى أن يحكم بغير ما يعتقد ومن الشاهد أن يشهد بغير مايعلم ومن الفقيه أن يفتى بما يخالف أحكام دينه وقواعده ومن الموظف أن يعتمد فى رقيه وتقدمه على المداهنة والمداجاة لا على الكفاءة والعمل ومن التلميذ أن يطرق الى نجاحه فى الامتحان باب « التأييد » والتوقيع لا باب الجد والاجتهاد، ومن الفلاح أن يبيع ذمته وضميره برتبة أو لقب أو قضاء مصلحة مالية ومن الكاتب أن يحول قلمه الذى وضعته الامة فى يده ليدافع به عنها ويذود عن مصلحتها الى سهم رائش مسموم يصيب به صميم قلبها، ومن الأمة كلها أن تتجرد من شخصيتها وهويّتها وتتحول الى قطيع من الاغنام يسير به كل راعٍ فى الطريق التى يريدها

سعد باشا يقول فيصدق وما عرفنا له كذبة قط مذ عرفناه واتصلنا به حتى اليوم، وأنتم تطلعون علينا كل يوم بأكذوبة جديدة لا ينتهى العجب منها حتى تتبعها أختها حتى سقطتم من أعيننا سقطة لم تسقطها طائفة من قبلكم، وحتى قال عنكم بعض أصحاب الرأى من الشيوخ المحنكين إنكم قد أفسدتم

من أخلاق الأمة فى بضعة شهور فوق ما أفسد الاحتلال الانكليزى منها فى أربعين عاماً

فهل من أجل هذا ننفض من حول سعد باشا ونلتف من حولكم ، ونخذله وننصركم ، وننزع عن رأسه تاج الزعامة انضعه فرق رؤوسكم !

إنكم إذن تريدون أن تقرروا أن أرض مصر قد استحالت الى دار مارستان كبرى يعيش فيها أربعة عشر مليونا من المخبولين وأن تشهدواالعالم كله على أنناأمة بلهاءممرورة لا تستحق استقلالا كاملا ولا ناقصاً بل لا تستحق البقاء فى هذا الوجود

ليس لنا أيها القوم زعيم نعبده ونخنع له غير المبدأ، وماولينا سعد باشا زعامتنا إلالأنه ينزل على إرادتنا ، وإرادتنا أن لا ينزل على إرادتكم ، ولا يأخذ برأيكم ، ولا يسير فى أى طريق يعلم أنكم تسيرون فيها ، ومادام هذا شأنه فمحال أن نغدر به ونخفر ذمته ، ومحال أن نخلى بينكم وبينه ونسمح لكم بشفاء غليلكم منه ونحن شهود نسمع ونرى

عجباً لكم فيكم العالم والمستنير والفيلسوف والكهل المجرب والشيخ المحنك فكيف فاتكم جميعاً أن تفهموا أن للطبيعة سنة

لا يمكن تحويلها ولا تبديلها ، وأن تحويل أمة مستنيرة ذكيـة عددها أربعة عشر مليوناً من الحياة إلى الموت فى بضعة شهور ليس بالأمر السهل الهين ، وأن نقل الزعامة من يد الى يد ليس من الأشياء الخاضعة لقانون الحول والقوة بل لقانون الانتخاب الطبيعى الذى تخضع له الجمعية البشرية منذ أشرقت عليها شمس الحياة حتى اليوم ، وأن توجيـه النفس الانسانية من شعور الى ضده لا يأتى من طريق القوة والقهر بل من طريق الحجة والاقناع أو من طريق الاستدراج والاستهواء على الأقل

ما أشد غروركم بأنفسكم أيها القوم وما أشد احتقاركم لأمتكم ! أما غروركم بأنفسكم فلأنكم ظننتم أنكم بالقاء بعض الخطب وكتابة بعض الرسائل وتدبير بعض المكائد وإنفاق بعض الاموال تستطيعون تحويل الأمة المصرية بأجمعها من حب سعد إلى بغضه ، ومن الثقة به الى الثقة بغيره ، ومن التمسك والتشدد فى المطالب الوطنية الى القناعة والتهاون فيها ، ومن سوء الظن بالسياسة الانكليزية الى حسن الظن بها ، ومن السخط على مشروع ملنر الى الرضا عنه والاغتباط به ، بدون استناد الى حجـة ولا برهان ، كأن ما تفضون به الى الناس آيات منزلة لا يأتيها الباطل من بين

يديها ولا من خلفها ، وما طمع صاحب الآيات المنزلة نفسه جل جلاله أن يؤمن الناس بآياته ويذعنوا لها دون أن يَدعَمها بالحجة والبرهان ، وأما احتقاركم لأمتكم فهو اعتقادكم أنها أمة بسيطة ساذجة تأتى بها كلمة وتذهب بها كلمة وتعلو بها فكرة وتهبط بها أخرى ، وكأَنما أنتم تقولون فى أنفسكم إن الروح الوطنية التى تختلج فى صدرها إنما هى روح صناعية غرستها الحوادث والظروف فلم لا تنتزعها الحوادث والظروف ، وإن الوحدة الوطنية التى تربط بين أجزائها إنما هى وحدة كاذبة موهومة فلم لا نبددها ونمزق شملها ، وأن المنزلة التى نالها سعد باشا فيها إنما نالها بالسفسطة والثرثرة فلم لا نسلط عليها السفسطة والثرثرة لتذهبا بها ، ومادام هذا مقدار عقلها وتصورها فمن السهل علينا أن نعدَها بأننا نحن الذين سننيلها جميع آمالها ومطالبها لتطمئن إلينا حتى إذا حان وقت الوفاء بوعدنا قدمنا لها القيد الحديدى الذى أعددناه لها وسميناه خلخالا ذهبياً فتصدق وتغتبط وتستطير فرحاً وسروراً

إن كان هذا هو ما تضمرون فى أنفسكم وما أحسبكم تضمرون غيره فوالله ما احتقر أحدٌ فى العالم هذه الأمة احتقاركم لها ولا رأى شعب من الشعوب فيها حتى الشعب الذى

يستعبدها ويستذلها هـذا الرأى الذى ترونه ، واسمحوا لى أن أقول لـكم بعـد ذلك إنه مادامت أفكاركم وآراؤكم فى المجتمع وشئونه والأمم وطبائعها والنفوس ومشاعرها لا يمكن أن تتجاوز هذا القـدر الذى وصلت إليه فليس بينكم رجل واحد يستطيع أن يكون زعيماً لأمة أو زعيما لقرية أو زعيماً لنفسه

الى خصوم سعد باشا

٣

إن كنتم تريدون أن تجردوا سيف القوة والقهر على رؤوسنا لتستلوا من بين أشداقنا كلمات الحمد لكم والثناء عليكم والاعتراف بأنكم أصدق الناس وطنية وأشدهم إخلاصاً وأعدلهم حكماً وأسدّهم رأياً وأبعدهم نظراً وأنكم خير من يتولى قيادة المسألة المصرية حتى يبلغ بها الغاية المرجوة لها فلكم ما شئتم وفوق ما شئتم، ولا عار علينا في ذلك ففينا الضعيف والعاجز والمضطر وصاحب الحاجة، ومن قبلكم عالجت محكمة التفتيش فى اسبانيا من أهليها مثل ما تعالجون منا اليوم فنطق الموحد بكلمة التثليث، ولبس صاحب العمامة القلنسوة، وعلق حامل المصحف الصليب، ومن قبل ذلك أرغم كثير من أمراء الاسلام العلماء والفقهاء على اتباع المذاهب والنحل التى ينتحلوها فلم يجدوا بداً من الاذعان لهم والنزول على حكمهم، غير أن لنا عندكم رجاء واحداً لا نضرع إليكم فى شئ سواه، وهو أن تعترفوا بالطريقة التي حملتمونا بها على الاذعان والتسليم وألا تكذبوا علينا فتنشروا

فى الناس أنكم أقنعتمونا فاقتنعنا، وأقمتم لنا الحجة فسلمنا، وأننا آمنا بكم طائعين مختارين، فتلك النكبة العظمى والرزيئة الكبرى التى لا قبل لنا باحتمالها، وخير لنا ان يتحدث الناس عنا أننا ضعفنا وجبنا بين أيديكم فلم نستطع إلا النزول على حكمكم والتسليم لكم بما تريدون من أن يقولوا عنا إننا انخدعنا بكم وصدقنا أكاذيبكم

لا نطيق أن يتحدث الناس عنا أننا صدقنا أن أصدقاء الحماية بالامس أعداؤها اليوم، وان الذين أغمدوا فى صدورنا تلك الخناجر المسمومة قد تحولوا اليوم الى أطباء راحمين يحاولون انتزاعها منا، وان الفارين من صفوف الجيش الوطنى الى صفوف جيش العدو ليحاربونا معه ويعينوه علينا وطنيون مخلصون، وان الذين يرمون الامة بالجهل والغباوة والانقياد إلى زعمائها انقياد القطيع لراعيه بلا تصور ولا ادراك أصدقاء لها يعطفون عليها ويتمنون لها الخير والسعادة، وان اتفاق السياستين سياسة الحكومة المصرية وسياسة الحكومة الانكليزية فى الاقوال والافعال والشعور والاحساس والميول والرغبات والأساليب والتصورات من باب توارد الخواطر

ووقوع الحافر على الحافر كما يقول البلاغيون ، وان الديموقراطية الصحيحة هى أن تخضع أكثرية الأمة العظمى لاقليتها الضئيلة المتهالكة فان لم تفعل فهى المنقسمة والمنشقة والمنحرفة عن سواء السبيل ، وان الزعيم الوطنى يجب أن يكون رجلا مجرداً من صفات البطولة والنبوغ والشخصية القوية والذكاء الخارق ليصلح لزعامة الأمة وقيادتها ، وانه كان من الواجب على سعد باشا كلما برز اليه رجل من الرجال وقال له تنح لى عن زعامة الأمة وقيادتها لأتولاها من دونك وأمدنى فوق ذلك بقوتك ونفوذك وثقتك لأستطيع أن أنزل من نفوس الامة المنزلةَ التى تنزلها وأتمتع بحبها واحترامها بدلا منك وجب عليه أن يفعل ذلك فان أبى فهو مستبد جبار لا تقع تبعة انقسام الامة وتفرقها إلا على رأسه ولا يؤخذ بها أحد سواه ، وان المفاوض الذى لا يمثل الا فئة قليلة من الشعب لا تجرؤ أن ترفع صوتها إلا بين جدران الحصون وتحت ظلال السيوف أعظم قوة وأكبر نفوذاً وأثبت قدماً وأقدر على استنزال مفاوضه على حكمه من الزعيم الذى يمثل أربعة عشر مليوناً يغضبون لغضبه ويرضون لرضاه ، وان المستر سوان وزملاءه القائلين بنظرية استقلال الأمة وحريتها وحقها المطلق فى تقرير مصيرها قوم استعماريون محافظون تجب مقاطعتهم ومجافاتهم وطردهم

واهانتهم ، وان اللورد ملنر منظم الحماية الانجليزية فى مصر ومسجلها عليها رجل حر شريف متسامح تجب مواصلته ومفاوضته والحفاوة به، وان وفود جماعة من أعضاء مجلس النواب الانجليزى إلى مصر كما يفد اليها السياح الاوربيون فى كل يوم للاطلاع على الحالة السياسية العامة فيها تداخلٌ فى شؤوننا الداخلية يجب الغضب له والانفة منه ، أما صدور أمر من السلطة العسكرية الانجليزية بمنع رجل مصرى صميم من الانتقال من بلد إلى بلد فهو سائغ مقبول لا رائحة فيه للتداخل مطلقاً ولا خطر منه على استقلال الادارة المصرية وحريتها ، وان الواجب علينا أن نصبر ونتريث وان لا نسيء الظن بأعدائنا قبل أن نرى منهم عين الغدر ، وان نسمح لهم بالزحف علينا ، ثم باجتياز العقبات التى تعترضهم فى طريقهم الينا ، ثم باحتلال القلاع والحصون المشرفة علينا ، ثم بتوجيه فوهات مدافعهم الى منازلنا وبيوتنا ، فاذا شرعوا فى إلقاء القنابل وقذفها علمنا أنهم يريدون السوء بنا فخار بناهم وقاومناهم ، وان سعد باشا زعيم الامة ورئيسها المفدى وموضوع حبها واحترامها واجلالها واعظامها ظمآن إلى الرآسة يتلهف شوقا اليها ويتهالك وجداً عليها ، أما عدلى باشا فهو رجل زاهد فيها قالٍ لها ما يحتمل أن يشاك شوكة فى سبيلها

لا نطيق أن يتحدث الناس عنا أننا صدقناكم فى شىء من هذا كله ولو أننا فعلنا لوضعنا فى أيديكم مستنداً قوياً هو أقوى فى دلالته على غباوتنا وجهلنا من جميع المستندات التى جمعتموها حتى اليوم لتكون فى يد السياسة الانكليزية أسلحة تحتج بها علينا وتدفع بها فى صدور الذين يزعمون أننا أمة عاقلة رشيدة نستطيع أن نحكم أنفسنا بأنفسنا

اصنعوا بنا ما شئتم ، وافتنّوا فى ظلمنا وارهاقنا ما أردتم ، وخذوا من عرائض الثقة والتأييد ما تملأُون به غرف وزارة الخارجية الانكليزية من أرضها الى سمائها ،فتلك إرادة الله التى لا محيص عنها ، ولكن إياكم أن تزعموا أننا أعطيناكم من قلوبنا ما أعطيناكم من ألسنتنا ، فذلك ما نغضب له كل الغضب وما يملأُ صدورنا غيظاً وحنقاً

نقسم لكم بالله أننا ما رأينا فى حياتنا ولا فى تاريخنا الحاضر أو الغابر أطمع ولا أشره منكم ! ألم يكفكم مساعدة الدهر لكم ونزوله على حكمكم وان القوة الحربية من ورائكم تمدكم بكل ما تقترحون من سلاح وعُدة ، وان فى استطاعتكم متى شئتم أن تقهرونا على كل ما تريدون دون ان يحاسبكم عليه محاسب أو يراقبكم مراقب حتى أردتم أن تجمعوا إلى متعة الظلم الوحشى الذى تنعمون به متعة السمعة الحسنة والذكرى الطيبة !

تريدون ان تظلموا فيسمى الناس ظلمكم عدلا ، وان تقتلوا فيقبّل المقتول أيديكم اعترافاً بفضلكم ، وان تختلسوا الثقة من الناس اختلاساً فيشكر لكم هؤلاء الناس تفضلكم بقبول الهدية التى قدموها اليكم ، وان تضعوا الاغلال الثقيلة فى عنق الأمة فترقص فرحاً وسروراً بالعقود اللؤلؤية الجميلة الذى قلدتم بها جيدها ، وان تملأوا الجو هواء ثقيلا خانقاً فيستنشقه الناس هواء طلقاً عليلا ، وان تضعوا على قرص الشمس حجاباً كثيفاً حتى ما ينبعث منها شعاع واحد فيبتهج الناظرون بمنظر نورها المتلألئ الساطع

لقد رمتم مراماً لم يرمه أحد من قبلكم، وبلغتم فى الانانية والذاتية الغاية التى لا غاية وراءها ، فآه لو استطعتم أن تفهموا وتيسر لكم أن تعلموا أن المستحيل لا يمكن أن يكون ممكناً والممكن لا يمكن أن يكون مستحيلا وألا وجود لشىء فى العالم غير الحقيقة المجردة !

آه لو فهمتم أن هذه الأمة التى تحتقرونها وتزدرونها وتصفونها بالجهل والغباوة والغرارة والبساطة أمة عظيمة جداً لا مثيل لها بين الامم فى سلامة فطرتها وذكاء قلبها ودقة شعورها وإحساسها وسمو خصائصها ومزاياها وأن عيبها الوحيد الذى لا عيب فيها سواه

أنكم من ابنائها وسلائلها وانكم العقبة الكؤود التى لا تزال تعثر بها كلما حاولت المضى فى طريقها والسعى إلى الغاية التى هيأتها الاقدار لها ، ولولا كم ولولا أنكم اليد التى يضرب بها العدو بها والقنطرة التى يجتازها اليها لما استطاع أن يلمس شعرة من رأسها ولا أن يخطو خطوة فى أرضها فمتى نفرغ منكم ! ومتى يحكم الله بيننا وبينكم !

لا عذر لكم بعد اليوم ، فقد قلتم كل شىء وفعلتم كل شىء ، واستنفدتم جميع ما وهبكم الله من القوى العقلية والمادية ستة شهور كاملة فى سبيل اسقاط سعد باشا فلم تسقطوه وفى حمل الأمة على التهاون فى حقها فلم تستطيعوا ، فماذا تنتظرون ؟

أمصممون أنتم على الاستمرار فى خطتكم هذه إلى النهاية ؟ أعازمون على أن تعتبروا الأمة كمية مهملة لا حساب لها ، وان تؤلفوا من هذه الفئة البسيطة المسكينة جمعية وطنية تزعمون أنها الأمة باجمعها لتصدق لكم على المشروع الانجليزى المنتظر !

ان كان هذا هو ما تريدون وما أحسبكم تريدون غير هذا فاعلموا أن للأمة شأنها المستقلّ عن شأنكم وشأن مشروعكم وجمعيتكم ، وان ما تعملونه لا ينفعكم ولا ينفع أصدقاءكم ، ولا يغنى عنكم ولا عنهم شيئاً

الى خصوم سعد باشا

٤

أتدرون ماذا فعلتم بالأمس فى أسيوط وماذا كنتم تريدون أن تفعلوا فى كل بلد ينزله سعد باشا فى رحلته لو وجدتم إلى ذلك سبيلا ؟

إنكم قد وقعتم بأنفسكم على صك اعترافكم بعجزكم وقصوركم وفراغ أيديكم من كل حول وقوة ، وأن هذا منتهى ما فى وسعكم ، وكل ما تملك أيمانكم

أبعد ستة شهور كاملة تكتبون وتخطبون وتدسون وتكيدون وتلفقون وتكذبون وتصادرون حرية الألسنة والاقلام والنظر والتفكير ، وتنثرون ذهب المعز ، وتجردون سيفه فى كل بقعة وأرض ، لتكوين حزب سياسى عظيم ، يعضد الانجليز فى سياستهم ، ويعين الوزارة على البقاء فى مراكزها ، ويقارع حزب سعد باشا مقارعة البطل للبطل ، ينكشف الستار عنكم ،

فاذا أنتم رؤساء عصابات ، وإذا الحزب الذى كونتموه فئة من اللصوص المجرمين حملة الهراوات والنبابيت ، وسكان الأحراش والغابات ، يستطيع كل انسان يأمن جانب الحكومة ويملأ يده منها وإن كان أجبن الجبناء ، وأضعف الضعفاء ، أن يستعين بمثلهم على مثل ما استعنتم بهم عليه ؟

أهذا هو الحزب السياسى العظيم الذى هيأتموه للفصل فى القضية المصرية ، ورشحتموه لعضوية الجمعية الوطنية التى تتولى البت فى حاضر مصر ومستقبلها ؟

أهذا هو الحزب المفكر العامل الذى يمشى الى أغراضه السياسية بخطوات هادئة رزينة يعجز عن مثلها الجمهور الأهوج المستطار الذى تنعون عليه كل يوم طيشه وخفته وجهله ورعونته ؟

أما إنى لو كنت مكان رئيس الوزارة الذى تزعمون أنكم حماته ودعاته ، وأنصار سياسته ، وعمادوزارته ، لأحسنت تأديبكم على غشكم إياى ، وخديعتكم لى ، حينما زعمتم أنكم رؤساء مطاعون في عشائركم وقبائلكم ، وأن فى استطاعتكم تكوين حزب سياسى قوى يغمر بقوته وعظمته ونبله وشرفه حزب « الرعاع » الذى كونه سعد باشا فاذا أنتم لا شئ ، وإذا الحزب

الشريف النبيل الذى كونتموه وسميتموه باسمى ، ونسبتموه لى ، جماعة من قطاع الطرق يترفع عن الاتصال بهم عمدة قرية صغيرة ، فضلا عن رئيس حكومة عظيمة !

ما هكذا تساق الأمم أيها البلهاء ، ولا هكذا تقاد الشعوب ، ولا بمثل هذه الأساليب تُوجه الأفكار الى الخطط السياسية ، وما سمعنا قط إلا فى عرفكم واصطلاحكم أن النبابيت والعصى والخناجر والبنادق وسيلة من وسائل التأثير والاقناع !

حاربوا الرجل بالألسنة والأقلام كما يحاربكم ، وقارعوه بالحجة والبرهان كما يقارعكم ، وحاجوه بالصراحة والصدق والنبل والشرف كما يحاجكم ، فان أمكنكم ذلك فذاك ، وإلا فلا تلجأوا إلى الضربة الخائنة الغادرة التى يلجأ إليها المبارز الجبان حينما يعجز عن الثبات أمام خصمه ، ويشعر بتفوقه عليه

ما أقساكم وما أغلظ أكبادكم ! أمن أجل تقديم مستند بسيط للسياسة الانجليزية تعتمد عليه فى اثبات أن الرجل الذى يفاوضونه اليوم يمثل الامة المصرية أو أكثريتها ، وأن الاتفاق

الذى يعقدونه معـه كيفما كان شأنه اتفاق سـائغ مشروع ومن أجل أن يتيسر لوكيل وزارة الخارجية الانجليزية أن يصرح فى مجلس النواب بوجود فتنة فى مصر بين حزب زغلول باشا وحزب الحكومة تسفكون دماء أبناء وطنكم وتقترفون أكبر جريمة تعاقب عليها الشرائع السماوية والارضية ، وتلبسون أنفسكم وأبنائكم وذراريكم العار الذى لا يبلى أبد الدهر !

أليس لـكم أولاد تخافون أن ينتقم الله منكم فيهم ونساء تخشون أن يذرفن الدموع غداً على فلذات أكبادهن بما أذرفتم من دموع أولئك الثكالى المساكين اللواتى فجعتموهن فى أولادهن وفلذات أكبادهن ؟

أين هم أولئك العدليون الذين تتحدثون عنهم وتحاولون اقناع السياسة الانجليزية بوجودهم ، وفى أى أرض يقطنون وتحت أى سماء يعيشون !

أمن أجل بضع شراذم من الضعفاء المخدوعين ، وآخرين من المتملقين المداهنين، الذين يوجـد مثلهم فى كل أمة وشعب والذين يطيرون مع القوة حيث طارت ويقعون معها حيث وقعت ويعضدون كل حكومة حتى حكومة نيرون تزعمون أن الأمة منقسمة على نفسها وأنها فريقان سعديون وعدليون ؟

لمَ يتكون حزب سياسي في مصر لعدلي باشا والناس لا يعرفون من أمر الرجل شيئاً سوى أن السياسة الانجليزية اختارته لرآسة الوزارة والمفاوضة في المسئلة المصرية ، فان ذكر ذاكر منهم شيئاً من ماضيه لا يذكر له سوى أنه كان عضواً مهما في وزارة الحماية التي ضربت على مصر في سنة ١٩١٤ وانه أول رجل ثغر في جنح الظلام ذلك السد المتين الذي أقامته مصر لمقاطعة لجنة ملنر ، وانه أول رئيس وزارة اجترأت على مفاوضة الانجليز في المسئلة المصرية رغم إرادة الأمة وإرادة وكلائها

لمَ يتكون حزب سياسي لعدلي باشا يتشيع له ويحتد في مناصرته وتأييده ويحمل النبابيت والعصي لمحاربة خصومه قبل أن يحرك يداً أو لساناً في القضية المصرية وقبل ان يعلم الناس ما هو صانع فيها غداً ، أيفي بالوعد الذي وعدهم إياه أم تحول الحوائل بينه وبين الوفاء ، وهل الثقة إلا نتيجة طبيعية للعمل والاحسان فيه ؟

لمَ يتنكر الناس لسعد باشا ويتحولون من مسالمين له إلى محاربين ؟ هل خان الامانة التي عهدوا بها اليه ؟ أم قصر في المطالبة بحقهم ، والتعبير عن آمالهم وأمانيهم ، أم وعدهم بالنزول على

رغبتهم فقادهم بالسيف والنار إلى النزول على رغبته ، أم حول الحرب التى كانت بينهم وبين أعدائهم الى حرب بينهم وبين أنفسهم ؟ أم وضع الكمائم فى أفواههم فلا ينطقون ، والاغلال فى أيديهم فلا يتحركون ، أم نغص عليهم حياتهم الاجتماعية ، وحول ابتساماتهم الى دموع ، ومسراتهم الى أحزان وآلام ، وآمالهم فى الحياة السعيدة الى يأس وكمد

ألم يصدروا قرارهم الاجماعى فى أمره يوم احتفلوا بقدومه من أوربا احتفالا لم يظفر به ملك متوج ولا فاتح كبير ، فأى الاحداث أحدث بعد ذلك فيتنكروا له ، ويضمروا له البغضاء بين جوانحهم ؟

ألم يزل يهتف بالاستقلال التام لبلاده كما كان يهتف به من قبل ؟

ألم يزل يقارع الأعداء الغاصبين فى حاضره كما كان يقارعهم فى ماضيه ؟

أم يحاولوا خداعه والعبث بضميره واستنزاله عن صلابته وعناده فى التمسك بحقوق بلاده فلم يغتر ولم ينخدع وآثر أن يستهدف لهذه الحرب الهائلة التى يثيرها عليه أعداؤه وأنصار أعدائه من بنى وطنه على أن يفرط فى ذرة واحدة من حقوق الوطن المقدسة ؟

ألم يكن في استطاعته أن يقبل رآسة الوزارة حينما عرضوها عليه ليتمتع برؤية رجال الادارة الذين يتنافسون اليوم في الاساءة اليه والنيل من كرامته وهم وقوف على بابه يتلقون أوامره ويطيرون بها في كل شرق ومغرب فلم يفعل وفضل أن يكون فرداً من أفراد أمته واقفاً بجانبها يتلقى معها اضطهادات الحكومة ونكاياتها ويشرب معها بالكاس التي تشرب منها على أن يكون آلة في يد السياسة الانجليزية لقتلها وخنق حريتها

أمن أجل هذا يبغضه الناس ويتنكرون له ولا يقنعون منه بذلك دون أن يحملوا له الهراوات والعصى ليمنعوه من النزول ببلادهم ؟

هل تنازلوا عن مطالبهم الوطنية ونفضوا أيديهم منها فهم ينكرون عليه تمسكه بها وتشدده فيها ؟

هل صفت مياه الود بينهم وبين الانجليز ، وحل الحب والوئام بينهما محل البغضاء والشحناء ، فهم لا يريدون منه أن يكدر عليهم هذا الصفاء ؟

هل كانوا يجاملون فيه عدلى باشا يوم أجلوه وأعظموه وأحلوه ذلك المحل الاعظم من نفوسهم ، فلما تنكر له الرجل

وجافاه تنكروا له معه وغضبوا لغضبته ؟

هل كانت وطنيتهم نوبة من نوبات الجنون كما كان يشيع عنهم أعداؤهم فلما استفاقوا رأوا أن ينتقموا من ذلك الانسان الذى أثار فى نفوسهم تلك العاطفة وأجج نارها فى صدورهم ؟

اللهم لا هذا ولا ذاك ، وكل ما فى المسألة أن الوزارة تريد البقاء فى مركزها ، ولا يمكنها البقاء فيه إلا إذا نفذت المشروع الانجليزى المنتظر ، ولا سبيل لها الى ذلك إلا إذا فضت الامة من حول سعد باشا وحملتها على الالتفاف حولها وتأييد سياستها ، وقد عجزت عن أن تصل الى ذلك فهى تزعمه وتدعيه وتمثل هذه الرواية الغريبة التى هى أشبه الأشياء بقصة ذلك الرجل الذى أراد أن يتوسل الى قلب حبيبته بعمل من أعمال البطولة التى يحبها النساء ويمنحن الرجال عطفهن من أجلها ، كأن ينجيها من من غرق أو ينقذها من هوة أو يخلصها من أيدى اللصوص وهو أعجز الناس عن ذلك فاستأجر جماعة من الغوغاء واتفق معهم على تمثيل رواية خلاصتها أنهم يكمنون لها فى طريق مرورها تحت جنح الظلام حتى إذا مرت بعربتها هجموا عليها وتظاهروا بأنهم يريدون قتلها وسلبها فيمر هو فى تلك الساعة

كأنه سائر فى طريقه مصادفة واتفاقاً فيهجم عليهم هجمة شديدة تلقى الرعب فى قلوبهم ويطلق عليهم مسدسه المحشو بالرصاص الكاذب فيخافون منه ويفرون من بين يديه فرار الجؤذر من بين يدى الاسد الرئبال ، وقد مثل الرواية كما وضعها وكاد ينجح فى تمثيلها لولا أن الفتاة كانت ذكية الفؤاد فقرأت على وجهه حين دنا منها آية التصنع والتكلف فلم تحفل به ولم تقدم له كلمة شكر على بطولته وشجاعته وسارت فى طريقها وهى تغرب فى الضحك عليه وعلى غرابة تصوراته

هذه هى المسألة لا أكثر من ذلك ولا أقل

ما أجرأكم أيها القوم على الله وعلى الناس أجمعين !

أتكذبون على أربعة عشر مليوناً من النفوس أحياء يرزقون يقولون لكم بألسنتهم وأقلامهم وبجميع مايعرفون من الطرق والوسائل أنهم أنصار سعد باشا وأعداء السياسة الانجليزية فتقولون لهم لا بل أنتم أنصار عدلى باشا وأصدقاء السياسة الانجليزية

أيسيل النيل وشاطئاه بالهاتفين للرجل والمرحبين به والخائضين عباب الماء الى سفينته مخاطرين بأنفسهم علهم يرون وجهه أو يسمعون صوته حتى احتجتم فى دفعهم وردهم الى ضرب

الرصاص وإعمال السيوف ثم تقولون بعد ذلك إن البلاد تكره سعد باشا ولا تطيق رؤيته ، أترون بأعينكم لمعان السيوف فى أيدى رجال البوليس وتسمعون بآذانكم طلقات بنادقهم وتشاهدون مطاردتهم الناس وهدمهم الزينات ووضعهم العقبات ثم تقولون بعد ذلك إن الادارة كانت على الحياد وإن حزب عدلى باشا القوى العظيم فى أسيوط هو الذى أرغمها على منع سعد باشا من النزول الى البر ؟

دعونا من سياسة الدسائس والمكائد والمواربة والمداجاة والتلفيق والتأويل فهى سياسة عقيمة لا تصلح تربة مصر الطيبة الطاهرة لانباتها واستثمارها ، ودعونا من أساليب المكر والدهاء والخبث والرياء ومن قتل القتيل والسير وراء نعشه ، وخنق الحرية والبكاء عليها ، والاخلال بالأمن العام باسم حفظه وصيانته ، وانتهاك حرمات الناس باسم حمايتها والذود عنها ، وأمثال ذلك من الاساليب العتيقة البالية التى ذهبت وانقضى عصرها بانقضاء عصور الجهالة والسذاجة ، وخذوا بنا فى الحقائق المجردة الواضحة التى لا لبس فيها ولا إبهام

ارفعوا الاحكام العرفية والقوانين الاستثنائية ودعوا الناس أحراراً يفكرون كيف يريدون ويقولون ما يشاؤون مما لا يخرج

عن دائرة القانون والنظام ، نصدق أنكم قوم أحرار تقدسون الحرية وتجلون شأنها

تزحزحوا قليلا عن تلك الحائط الاجنبية التى تسندون اليها ظهوركم وتستظلون بظلها وتضربون تحت حمايتها ، وليكن النضال بيننا وبينكم وجهاً لوجه ، نصدق أنكم أصحاب رأى وعقيدة ، وانكم انما تعملون بما توحيه اليكم آراؤكم وأفكاركم

أشيروا على الوزارة بقطع المفاوضات وقولوا لها إن الأمة غير راضية عنها ولا عن نتيجتها، نصدق أنكم تنزلون على إرادة الأمة ورغبتها وأنكم تحترمون اجماعها وتنزلون على حكمها

اعترفوا بالحقيقة الواقعة التى تعلمونها وتعلمون ان الناس جميعاً يعلمونها ، وهى أن حزب الحكومة فى مصر حزب مصنوع موضوع لو نُفس عنه الخناق قليلا وتخلى عنه العاملان المهمان ذهبُ « المعز » وسيفه لحظة واحدة لطار فى أجواز الفضاء ولما بقى منه فى مكانه إلا أفراد قلائل لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد أو اليدين وان مصر لا يوجد فيها إلا حزب واحد تطارده الحكومة وعمالها وأنصارها نصدق أنكم قوم صادقون مخلصون لا تقولون إلا ما تعتقدون

هـذه هى السبيل الوحيدة لما تطلبون الينا من الثقة بكم والاعتماد عليكم واحترام آرائكم وأفكاركم واجلال مقاصدكم وغاياتكم فان فعلتم فانتم اخواننا واصدقاؤنا وأكرم الناس علينا وإلا فقد علمتم رأينا فيكم وما نحن بظالمين ولا عادين ونسأل الله لكم الهداية والتوفيق

الى خصوم سعد باشا

٥

لو أنكم أيها المنشقون بقيتم تحت لواء زعيمكم لم تفارقوه ولم تنتقضوا عليه إن لم يكن ذلك من أجله فمن أجل كرامة الأمة وشرفها والإبقاء على وحدتها وجامعتها ، ولو أنكم إذ أبيتم ألا أن تفارقوه فارقتموه بهدوء وسكون لم تثيروا الثائرة عليه ولم تطعنوا خلقه وشرفه وكرامته تلك الطعنات الداميات التى لا يحتمل وقعها فى فؤاده أحقر الناس وأصغرهم فى عين نفسه شأناً ، ولو أنكم يا أعضاء الوزارة بدلا من ان ترسلوا رشدى باشا اليه يوم استعصى عليكم أمره ليؤذنه بالحرب وليقول له إننا قد قررنا رفض شروطك وإغفال امرك واطراحك والاستقلال بالعمل من دونك رغم أنفك وأنف الامة التى تعتز بها أرسلتموه الى دار الوكالة البريطانية ليقول لصاحبها إننا قد عجزنا عن اقناع سعد باشا بالتنازل عن شروطه التى اشترطها للمفاوضة وليس

فى استطاعتنا وهو زعيم الامة وقائدها وقلبها الخفاق أن نخاطر بمجافاته ومناوأته إلا إذا قررنا المخاطرة بوحدة الامة وجامعتها وذلك مالا نرضاه لانفسنا وما يأباه علينا شرفنا وإخلاصنا فهاهى وزارتكم نخذوها اليكم فهى ونحن وكل ما تملك أيدينا فداء لامتنا ووطننا ، ولو أنكم اذ أبيتم الا البقاء فى مراكزكم وإلا أن تذهبوا إلى المفاوضة رغم إرادة الامة وإرادة زعيمها ذهبتم باسمكم وحدكم دون أن تفتحوا باب العرائض والوفود وتداخلوا الامة فى شأن الثقة والتأييد فان عدتم لها بالنجاح شكرت لكم فضلكم وأولتكم ودها وثقتها والا فلا يعنيها من فشلكم واخفاقكم شىء

لو أن ذلك كله كان لبقيت الامة طول حياتها فى موقفها الجليل العظيم الذى وقفته فى أعوامها الثلاثة الماضية موقف الاتحاد والتضامن والقوة والبأس والعزة والشرف ولظلت سائرة فى طريق جهادها الوطنى تحت قيادة زعيمها حتى تصل إلى الغاية التى رسمتها لنفسها أو تموت من دونها

فانتم يا خصوم سعد باشا وخصوم الامة جميعها المسئولون عن ذلك الشمل المبدد والاديم الممزق والجامعة التى تشوه وجهها وزال رونقها وبهاؤها وعن حوادث الاسكندرية وطنطا وأسيوط وجرجا وجميع المظالم التى نزلت بالوطنيين الابرياء فى الاشهر

السبعة الماضية من قتل وسجن وإعدام وتشريد وتعذيب واضطهاد وعن تلك النهاية المحزنة الاليمة التى انتهت بها المفاوضة الاخيرة، فاعترفوا بذلك ولا تكتموه الناس عسى أن تجدوا لكم فى زوايا بعض القلوب مكاناً للرحمة بكم والاشفاق عليكم ولا تحاولوا القاء التبعة على غيركم فتضموا إلى جرائكم الماضية جريمة العناد والاصرار

من الذى عهد اليكم بالاشتغال بقضية مصر السياسية ! وأين هو المؤتمر الوطنى أو الهيئة النيابية أو الجمعية الوطنية التى عهدت اليكم بذلك واختارتكم له ! ومتى كانت الشؤون السياسية ميداناً للتجارب والاختبارات ينزل فيه كل من أراد أن يجرب حذقه ومهارته !

إن الامة لم توكل فى قضيتها غير رجل واحد قد اختار بضعة أفراد منكم فيمن اختاره من أصدقائه ومعارفه للاستعانة بهم على عمله ثم لم يحمد أمرهم حين أحس منهم الغدر به وبالقضية المصرية فعزلهم وعزلتهم الامة معه فما هذا التشبث البارد بعضوية الوفد والوكالة عن الامة والنطق باسمها والمفاوضة عنها والامة لا تعرفكم ولا تفهمكم ولا صلة نفسية بينها وبينكم ولم تعتقد فى وقت أوقاتها أنكم وكلاؤها أو نوابها أو أمناؤها على سياستها

حتى أوردتموها بالحاحكم وفضولكم وسوء سياتكم هذا المورد الوبيل

لا تلوموا سعد باشا على فشلكم واخفاقكم ولوموا أنفسكم، فقد أبلى الرجل البلاء العظيم فى نصحكم وتحذيركم وتنبأ لكم بكل ما وقع لكم اليوم كانما كان يطالع صحيفة من صحائف الغيب فلم تكترثوا له ولم تحفلوا بنصحه

قال لكم أن المفاوض الانجليزى لا يحفل ولا يعبأ إلا بمفاوض يعتقد أنه يمثل أمته و ينطق بلسانها نطقاً حقيقياً لا تمثيلياً فاتهمتموه بحب الرآسة والسعى وراء الشخصيات ورميتموه بسوء النية والقصد

وقال لكم إن الانجليز لا يريدون بفتح باب المفاوضة معكم الا الاستعانة بكم على تمزيق شمل الامة وتبديد وحدتها وهى القوة الوحيدة التى تملكها ولا تملك غيرها وألا خير يرجى من هؤلاء القوم لكم ولا لغيركم فثرتم فى وجهه وسمحتم لانفسكم أن تسيئوا الظن به ولا تسيئوه بالانجليز

وقال لكم احذروا أن تخطوا خطوة واحدة فى طريق المفاوضة قبل ان تستوثقوا لانفسكم بمرسوم سلطانى يحدد موضوع المفاوضة ويكون أساساً لها فانكرتم ذلك عليه وزعمتم أن

فى أيديكم من الوعود المؤكدة والاقسام المغلظة ما يغنيكم عن هذا الاحتياط والاستيثاق

وقال لكم إن الانكليز يخافون أكثر مما يستحيون وانهم لا يعرفون فى السياسة مودة ولا إخاء وانهم لا يريدون من استبدال مفاوض بمفاوض إلا الهرب من شدة الأول والطمع فى لين الثاني فسفهتم رأيه وزعمتم أنهم قوم ذوو أخلاق كريمة وآداب عالية وعواطف شريفة وأمزجة رقيقة وانهم يمنحون الصديق الذى يحاسنهم أضعاف ما يمنحون العدو الذى يخاشنهم

وقال لكم فى نهاية الامر لا إرادة لى ولا لكم فى ما تقضى به الامة وما تراه فى شأنى وشأنكم فلنتحاكم اليها ولننزل جميعاً على حكمها فاكبرتم ذلك منه وسميتموه رجلا ثائراً متمرداً لا يخضع لقانون ولا نظام

قال لكم كل شىء ، وحذركم من كل شىء ، فلمَ تلومونه اليوم وتلقون تبعة إخفاقكم عليه ولمَ يملأ بغضه صدوركم حتى يصرفكم عن الالتفات الى عدوكم الحقيقى الذى لعب بكم وعبث بعقولكم وكون منكم جيشاً جرارا لمحاربة أمتكم وتنغيص عيشها وتكدير صفائها حتى اذا قضى حاجته منكم وفرغ من تمزيق شمل الامة وصدع وحدتها على أيديكم أدار وجهه عنكم ونبذكم نبذ النواة

بلا رحمة ولا شفقة ، وهذا هو المعنى الحقيقى للمفاوضة التى أجراها على أيديكم وهذا هو كل الغرض المقصود منها

ليسأل عدلى باشا اللورد ملنر عن هذه النتيجة المحزنة التى انتهى اليها أمره ، فهو الذى خدعه وغشه ومناه الامانى الكاذبة ووقف به على رأس ذلك الطريق الجميل الذى ظن أنه ينتهى به الى زعامة الامة وقيادتها ، ثم لم يلبث أن خذله وتخلى عنه ، بل استقال من وظيفته حتى لا يتقيد بالوعد الذى وعده إياه

ليسأل المنشقون عدلى باشا عن السقطة الادبية العظمى التى هوت بهم من سماء العزة والشرف الى حضيض المهانة والضعة فهو الذى زين لهم الانشقاق على زعيمهم والخلاف عليه وأغراهم باتخاذ خطة فى السياسة غير خطته ففعلوا فكان ذلك عاقبة أمرهم وخاتمة مطافهم

ليسأل الوزاريون جميعاً المنشقين والوزراء عن خيبة الامل التى لحقت بهم والصدمة الكبرى التى اصطدمتها آمالهم وأمانيهم فهم الذين خلبوهم واستهووهم وأطمعوهم فى الجوائز والمنح والوظائف والرتب يوم يتم لهم الانتصار على أيديهم فلا هم أدركوا ما أملوا ، ولا هم بقوا فى صفوف أمتهم يعملون معها ويجاهدون فى سبيلها

ليسأل كل منكم صاحبه عن نكبته التى نزلت به ولا تسألوا سعد باشا عن شئ ولا تلوموه فى أمر بل اشكروا له فضله عليكم ويده عندكم ، فلولاه ولولا جهاده ومعارضته ووقوفه فى وجهكم ووجه مشروعكم وقفة الأسد الهصور لتمت على يدكم الجريمة الكبرى، جريمة تسليم البلد إلى أعدائه ، ولسجل التاريخ عليكم فى صحائفه أنكم أصحاب تلك الجريمة ومقترفوها

أفهمتم الآن أن سعد باشا أصدق منكم نظراً وأعلى رأياً وأنفذ بصيرة فى بواطن الأشياء ، وأنه ما كان يعارضكم يوم عارضكم حباً فى الرآسة أو سعياً وراء الشخصيات كما كنتم تزعمون ، بل حرصاً على مصلحة البلد وضنًّا بخلاصه وإنقاذه

أفهمتم الآن أنه لو كان نزل على رأيكم وخضع لاوهامكم وأحلامكم وهذا هو ذنبه الوحيد الذى تأخذونه به لدفن معكم فى الهوة التى دفنتم فيها اليوم ولم يبق فى الأمة من بعده صوت صارخ ينادى بحريتها واستقلالها

أفهمتم الآن أنه لا يوجد بينكم رجل سياسى واحد يكتنه بواطن السياسة ويستشف أعماقها ، ويدير معركتها الادارة الكافلة بفوز الامة وانتصارها أو بانقاذها من خطر الوقوع

فى ربقه الأسر على الأقل ، وانه لو تم على يدكم اسقاط سعد باشا كما كنتم تريدون لطال حزنكم وبكاؤكم يوم تطلبون غيره ليقوم مقامه ويملأ فراغه فلا تجدون

ماذا كان يظن أعضاء بعثتكم بأنفسهم يوم ذهبوا للمفاوضة على الصورة التى ذهبوا عليها ، وكيف كانوا يتصورون أن المفاوض الانكليزى يعطيهم الاستقلال تاماً أو ناقصاً وقد تقدموا إليه بيد فارغة من كل قوة يستطيع المفاوض أن يعتمد عليها فى مقارعة خصمه واستنزاله على حكمه

لا يستطيعون أن يقولوا له إن الأمة قوية مسلحة تستطيع أن تنتصف لنفسها بنفسها إن لم تنصفوها لانه يعلم كما يعلمون أنها ضعيفة عزلاء لا تحمل من الأسلحة أكثر من عصى « الساحل » ونبابيت « الحواتكة » ولا أن يقولوا إنها متحدة يداً واحدة وقد يكون الاتحاد قوة تقوم مقام القوة المادية لأنهم قدموا إليه قبل ذلك الوثائق والمستندات الدالة على أنها منقسمة على نفسها وأنها فريقان سعديون وعدليون يقتتلون فى كل مكان يلتقون فيه كما كان يفعل البروتستانت والكاثوليك فى ايرلندا والمسلمون والوثنيون فى الهند ، ولا أن يقولوا له إنها متشددة فى مطالبها الوطنية لا تقبل فيها مساومة ولا مهاونة لأنهم قالوا له وأقسموا على ما قالوا

أن أكثريتها قد انفضت من حول سعد باشا والتفت من حولهم، أى أنها قد تحولت من خطة التشدد والتطرف إلى خطة القناعة والاعتدال، ولا أن يقولوا له إنها راقية متمدينة تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها، لانه يعلم كيف حصلوا على عرائض الثقة التى قدموها اليه وماذا صنعوا بأمتهم فى سبيلها، فماذا يعنيه من أمرهم بعد ذلك؟

لا رعاكم الله أيها القوم، ولا رعي يوماً اتصلنا بكم فيه، فقد أفسدتم علينا كل شأن من شؤون حياتنا، وهدمتم بحمقكم وخُرقكم وسوء رأيكم في لحظة واحدة ذلك البناء الفخم الجميل الذى قضينا فى بنائه ثلاثة أعوام كاملة، ولم تقنعوا منا بذلك حتى جئتم اليوم تمنون علينا بأن بعثتكم قد قطعت المفاوضات وأن لها ولكم الحق فى الافتخار بذلك

مرحى مرحى! ألم تكن المفاوضات مقطوعة من قبل اليوم على يد سعد باشا! فهل كان غرض البعثة من ذهابها أن تقطعها مرة أخرى حتى إذا تم لها ذلك عادت تفخر بنفسها وتفخرون بها وتدعون الناس الى الاحتفال بها عند قدومها!

تريدون أن نحتفل بها لنجدد بذلك عصر الجاهلية الاولى أيام ضراعة الشعوب وذلها ومهانتها واستخذائها وتقبيلها يد ضاربها حين يضربها وشربِ نخب انتصاره عليها

تريدون أن نحتفل بها ليتحدث الناس عنا أننا قد رضينا بجميع المظالم التى نزلت بنا وأغضينا جفوننا على قذاها ، وغفرناها لها لأتفه الاسباب وأهونها فيطمع فينا كل طامع ، ويعبث بحقوقنا كل عابث!

أتريدون أن نحتفل بها لتبرز لنا كل يوم هيئة جديدة تفتح باب المفاوضة فى القضية المصرية ثم تقفله لتتمتع بكلمات الثناء عليها ، ومشهد الاحتفال بها ، ونحن فيما بين هذا وذاك هلكى ضائعون !

أتريدون أن نحتفل بها قبل ان نعلم هل نفضت يدها من المفاوضة إلى الابد أو أنها قطعتها اليوم لتصلها غداً ، وهل صرفت النظر عن عرض مشروع كرزن على الأمة أم تريد عرضه من طريق غير طريقها ، وهل الوزارة مصممة على الاستقالة أم تريد البقاء فى مركزها أم تريد أن تنحل لتتألف مرة ثانية بصورة أخرى غير صورتها ليبقى لنا شقاؤنا وبلاؤنا الذى نحن فيه مدى الدهر ، وهل برئنا من دائها تمام البرء أم لا تزال بقية منه كامنة فى أعماق صدورنا لا نعلم ما الله صانع بها!

وبعد فأين هى المفاوضة التى تزعمون أنها قامت بها أو أنها قطعتها أو وصلتها ؟

إنها لم تفعل شيئاً سوى أنها تقدمت لاداء الامتحان امام اللورد

كرزن فى القدرة على حمل مشروعه إلى الأمة وتنفيذه فيها فأخفقت فعادت أدراجها!

فهل هذا هو الفخر الذى تزعمونه لها وتنحلونها اياه وتريدون حملنا بالاساليب الادارية المعهودة على الاحتفال بها من أجله؟

إن كان تمزيق شمل الامة وتبديد وحدتها والاستعانة بالقوة الاجنبية على اخضاعها وإذلالها وسفك الدماء البريئة فى الساحات والشوارع وزجُّ الوطنيين المخلصين أفواجاً أفواجاً فى أعماق السجون وابتياع الذمم والضمائر ومحاولة افساد الاخلاق القومية فى جميع الدوائر والهيئات حتى فى المدارس والمعابد والمحاكم والتفريقُ بين الوالد وولده والاخ وأخيه والصديق وصديقه والزوج وزوجه وافسادُ سياسة الأمة عليها وإطماع أعدائها فيها والهبوط بالمفاضات بعد ذلك كله وبعد تضحية جميع هذه الضحايا من مشروع ملنر إلى مشروع كرزن مجداً وفخراً يستحق أصحابه الاجلال والاعظام والاحتفاء والاحتفال فرحمة الله على الفضيلة وليبك الباكون عليها وعلى مصيرها المحزن الأليم

كونوا أيها القوم كيفما شئتم وأضمروا لنا من النيات ما أردتم ورتبوا لنا فى أذهانكم كل يوم مكيدة جديدة ودسيسة مبتكرة فمحال أن تنالوا منا منالا أو تصلوا من طريقنا إلى غاية، فسنبنى

بعون الله وإسعاده كل ما هدمتم ونصلح كل ما أفسدتم، وسنعيد إلى بين حظيرتنا جميع اخواننا الذين أفسدتموهم علينا واختطفتموهم من صفوفنا لا نضعف ولا نفتر ولا نهن ولا نيأس، فما خلقت الامم إلا للجهاد، ولا لذة للحياة إلا بالعمل، حتى يأتى عليكم ذلك اليوم الذى تقتنعون فيه تمام الاقناع بأن فى الامة رأياً عاماً جدياً لا يسمح لرأس معوج يريد ان يرتفع على حسابها وحساب ظامها واساءتها بالبروز من مكمنه وان لا قوة فى مصر غير قوة الشعب ولا حكم فيها إلا حكمه

الى أعدائنا

١

نعم إنكم أقوياء جداً، بل لا توجد قوة فى العالم توازى قوتكم، ولكننا على ضعفنا وخلو أيدينا من السلاح والعدة أقوى منكم، لأنكم حاربتمونا بسلاح الخديعة والمكر الذى ألفتم أن تنتصروا به على الشعوب الشرقية قروناً عدة فانهزمتم أمامنا، واستطاع هذا الشعب الشرقى الصغير حديث العهد بالسياسة وأساليبها وألاعيبها ومناوراتها أن يدرك خبايا مقاصدكم ومراميكم، وأن يمزق عن وجوهكم ذلك الستر الكثيف الذى كان يجللها، وأن يقول لكم بصوته العالى المرتفع: لا أقبل الخدع والألاعيب، فاما الاستقلال تاماً صريحاً لا ريبة فيه، أو لا شىء

إننا أقوى منكم لأنكم لم تستطيعوا أن تخدعونا عن أنفسنا، ولا أن تستنزلونا عن عقيدتنا ويقيننا، أما تلك القوة الميكانيكية التى تهرعون بها فى شوارع البلاد وأزقتها، وتملأون بها وجه الارض وجو السماء، فهى مما لا يفخر به الفاخر ولا يُدلّ به المدِلّ، لأنها

شىء ، والصفات النفسية والمزايا العقلية شىء آخر

هل استطعتم بعد مقامكم بيننا أربعين عاماً أن تصطنعوا رجلا واحداً من بين هذه الملايين الكثيرة يحبكم ويخلص لكم ؟

هل استطعتم بعد أن سقط ذلك البرقع الكثيف عن وجوهكم وبدت للناس صفحتكم أن تجدوا ثمانية أشخاص يؤلفون لكم الوزارة التى تريدونها لتستعينوا بها على تنفيذ مشروعكم ؟ هل تستطيعون أن تزعموا انكم على ثقة تامة باخلاص شخص واحد من هؤلاء الموظفين الكثيرين الذين قضى عليهم سوء حظهم أن يعملوا معكم ، ويخضعوا لسلطتكم ، حتى الذين غمرتموهم منهم بالنعم ، وملأتم عليهم ديارهم رغداً وهناء ؟

هل تستطيعون أن تبتاعوا بأموالكم الكثيرة التى لا حد لها قلما مصرياً صميما يتولى نشر دعوتكم ، وتأييد سياستكم ، كما تفعلون فى كل مكان حتى فى أوروبا وأمريكا ؟

إذن أنتم ضعفاء ونحن أقوياء ، ولنا أن نفخر بهذه القوة التى نعتمد فيها على شرف أخلاقنا ، وعزة نفوسنا ، ومتانة عقيدتنا ، وشدة إخلاصنا لوطننا ، وليس لكم أن تفخروا بتلك القوة التى تعتمدون فيها على السيف والنار كما كان يفعل الهون فى أوروبا ، والمغول فى آسيا ، لانها أقرب الى صفات الوحشية وغرائزها ، منها الى روح المدنية ومزاجها

نعم إنكم اعتقلتم سعد باشا ، ولكن بعد أن صرع زعماءكم وقادتكم فى ميدان السياسة ، وأفسد عليكم تلك المؤامرة العظمى التى كانوا يريدون بها اعتقال مصر واستعبادها إلى الأبد ، فقد صودر سعد باشا واعتقل، ولكنّ مصر قد نجت

فى استطاعتكم أن تصبغوا وجه مصر بالدماء، وأن تملأوا بطنها بالأشلاء ، ولكن ليس فى استطاعتكم أن تتقوا نظرات الاحتقار والازدراء التى نلقيها عليكم حين نراكم، ولا أن تطفئوا نار الحقد والموجدة التى تنبعث من ألسنتنا وصدورنا الى وجوهكم، ولا أن تنالوا منالاً من تلك العقيدة الراسخة فى قلوبنا، وهى أنكم أضعف الضعفاء، وإن كنتم أقوى الأقوياء ، وأن هذه القوة التى تعتمدون عليها وتُدلّون بها ليست قوة السياسة ولا قوة الفكرة ولا قوة التدبير ، وإنما هى قوة الشر والغضب

أقتلونا ولكن بأيديكم لا بأيدينا ، ألفوا الوزارة ولكن من رجالكم لا من رجالنا ، أملكوا علينا كل شئ إلا قلوبنا وأفئدتنا ، احكمونا باسم الأحكام العرفية والأساليب العسكرية ، لا باسم القوانين الشرعية والأحكام السماوية والأرضية ، افتخروا بأنكم قمعتم الحركة المصرية وأنكم أخفتم الناس وأرهبتموهم ، ولكن لا تفخروا بأنكم حللتم مشكلة مصر الى الأبد

إنكم لا تحاربوننا من أجل احتلال البلاد فأنتم محتلوها ، ولا من أجل الاستيلاء على مواردها وأرزاقها فهي جميعها تحت سلطتكم وسيطرتكم ، ولا من أجل إطفاء الثورة وقمعها ، فالأمة التي لا سلاح لها لا ثورة فيها ، ولكنكم تحاربوننا من أجل إرغامنا على الاعتراف بمركزكم الشرعي في مصر ، ومادمتم لم تصلوا الى هذه الغاية بعد بذلكم ما وهبكم الله من دهاء سياسى وحيلة عقلية فى هذا السبيل ، فنحن المنتصرون ،وأنتم المنخذلون

الى أعدائنا

٢

ماذا جنى الرجل عليكم فتنفوه الى أقصى بقعة من بقاع الأرض وما هو بثائر ولا محارب ولا عرف له الناس موقفاً يدعو فيه بدعوة الجاهلية الأولى أو ينطق فيه بكلمة الدم التى ينطق بها الثائرون فى كل شعب وأمة ليستثيروا بها حفائظ النفوس ويدفعوا بها الرجال الى مواطن الموت

أين هو الجيش الذى قاده لمحاربتكم ، وأين هى الجموع التى سلحها وزحف بها عليكم ، وأين هى الثورة التى أشعل نارها ، أو الفتنة التى أحيا مواتها ، فتعاقبوه هذا العقاب الشديد الذى اعتدتم ان تعاقبوا به زعماء الثورات وقواد المؤامرات ، لا بل إنكم ما عاقبتم زعماء أعدائكم الذين رووا الارض بدمائكم ، وغطوا وجهها بأشلائكم ، ونالوا منكم أشد ما ينال محارب من محاربه بمثل هذا العقاب المؤلم الشديد . وقد كنتم تزعمون ويزعم كثير من الناس لكم أنكم أمة العدل والقانون ، وان الشمس لا تطلع فى مدار

من مدارتها على محكمة مثل محكمتكم ، وقضاة مثل قضاتكم ، وميزان قسط وانصاف مثل ميزان قسطكم وانصافكم

ان الرجل لم يكن جباناً ولا رعديداً ، ولا من المغرقين فى حب حياتهم ، أو الضانّين بها على مواقف المجد والشرف ، ولو شاء أن يشعل نار الثورة فى كل مكان وأن يقود الرجال الى موطن الموت لفعل، ولكنه لم يفعل، ولا فكر فى شىء من ذلك ، لانه من فريق الدعاة لا من فريق الثوار ، ولأنه رجل عاقل حكيم لا يخطو الخطوة الواحدة حتى يقدر لها موضعها، وكانت لهجته الدائمة التى لا تفارقه فى جميع مواقفه ومشاهده الدعوة إلى السكون والهدوء والعمل فى دائرة القانون والنظام والمطالبة بالحقوق الوطنية بالطرق المشروعة السائغة ، أى أنه كان رجل حجة وبرهان ، لا رجل نزال وطعان، فلماذا لم تعرفوا له هذا الشعور الطيب الشريف الذى كانت تشتمل عليه سريرة نفسه، ولمَ لم تحترموا فيه تلك العاطفة الطاهرة الكريمة التى كانت تتدفق بين جنبيه شرفاً ونبلا ، وتسيل رحمة وإحساناً

إنكم أقوياء جداً ، ما نازعكم فى ذلك منازع ، وها هى جيوشكم وأساطيلكم وأسلحتكم ودباباتكم وطياراتكم تملأ البحار والقفار، والسهول والجبال، والتهائم والنجود ، والشوارع والازقة ،

والاجواء والآفاق ، فماذا عليكم لو أنكم تركتم الرجل فى مكانه هادئاً مطمئناً لا تهيجونه ولا تزعجونه ، حتى إذا أثار عليكم الثائرة التي تخشونها لجأتم الى قوتكم فقمعتموها كما تفعلون اليوم وقد قامت لكم الحجة عليه واعتصمتم فى أمره باليقين الذى تطمئن اليه نفوسكم ، وتنقطع به حجج المؤاخذين لكم ،والناقمين عليكم ، وان كانت الاخرى كفيتم أنفسكم وكفيتمونا معكم هذا الشر المستطير بيننا وبينكم ، وحقنتم تلك الدماء التي سالت فى بطاح الارض بلا جريرة ولا سبب !

نؤكد لكم يا قوم أن الامة المصرية لم تكن آلة فى يد سعد باشا يصرفها كيف يشاء كما وهمتم أو كما أوهمكم ذلك الضعفاء منا، وان روح الوطنية المنتشرة فيها ليست روحاً صناعية كاذبة يحييها وجوده ويميتها نفيه ، وان نفيه الى أقصى بقعة من بقاع الارض بل الذهاب به الى مصير أعظم ويلا وهولا من هذا المصير لا يحل عقدة واحدة من عقد المسألة المصرية ، ولا يغير وجهاً واحداً من وجوهها ، ولا ينتقل بها خطوة من مكانها ، أى أنه لا يسمح للمستوزرين بتأليف الوزارة التي يريدونها ، ولا براحتهم وهدوئهم فيها إن هم ألفوها ، ولا يفسح لأولئك القوم الذين تسمونهم المعتدلين ،ونسميهم المساكين ، مجالا أوسع من المجال الذى يضطربون

فيه ، ولا يفتح فى جدار الوطنية ثغرة صغيرة تتمكن مكيدة المشروع الكرزونى" أو الملنرىّ من الانحدار منها ، وانكم لم تستفيدوا من كل ما عملتم شيئاً سوى انكم ظلمتم الرجل وبؤتم بإثمه ، لا أكثر من ذلك ولا أقل

ماذا جنى سعد باشا عليكم سوى أنه كان يطالبكم بحقه وحق بلاده بالحجة والبرهان ، ولا يوجد فى تاريخ من تواريخ الأمم القديمة أو الحديثة قانون متمدين أو متوحش يعتبر هذا العمل جريمة يعاقَب عليها صاحبها بازعاجه من مأمنه وإقصائه عن ارضه ووضع ذلك السد المنيع بينه وبين جمال الحياة ورونقها

لم تنتزعونه من سرير نومه قبل أن تنبعث الطير من وكناتها وتطيرون به الى ذلك المنفى القصى البعيد الذى لا يعلم الا الله ما يكون مصيره فيه وما هو بقاتل ولا سارق ولا مختلس ولا داع الى ضلالة ولا قائم بفتنة ولا طالب شيئاً سوى ان يعيش هو وقومه أحراراً كما تعيش الطيور فى أجوائها والسوائم فى مراتعها والاسماك فى دأمائها

لم لم ترحموا شيخوخته ومرضه وأنه رجل أعزل ضعيف لا يملك من القوى غير لسانه الذى يذود به عن وطنه وقومه ،

ومتى كانت الألسنة والاقلام جيوشاً وجحافل تنازلها الجيوش والجحافل !

لم لم تحاجوه وتقنعوه بحقكم الذى تزعمونه لانفسكم بدلا من أن تقولوا له «اما السكوت واما النفى»

ما أغرب شأنكم أيها القوم وما أعجب تصوراتكم ! أفيما بين يوم وليلة تنقلبون معنا من أصدقاء أوفياء تجالسوننا على منضدة واحدة لتفاوضونا على قاعدة الحرية والمساواة والود والاخاء الى أعداء حاقدين واجدين تسفكون دماءنا وتمزقون اشلاءنا وتشردون زعماءنا تحت كل نجم وكوكب وموقفنا موقفنا لم يتغير ولم يتبدل سوى اننا وقفنا لحظة أمام المشروع الذى قدمتموه الينا ننعم النظر فيه هل هو استقلال حقيقى كما تقولون أم شئ غير ذلك تسمونه استقلالا !

نقسم لكم بالله لقد جعلتمونا نرتاب فيكم، وفى كل ما تطلع عليه شمسكم . وتفىء عليه ظلالكم ، وفى الريح التى تهب من أرضكم ، والماء الذى ينحدر من بحركم ، بل وفى العلم الذى تشتمل عليه كتبكم ، والمحور الذى تدور عليه مدنيتكم ، ولقد مرت بنا أيام كنا لا نتمنى على الله فيها شيئاً سوى أن نصل فى المدنية الى الذروة التى وصلتم اليها، فقد أصبحنا ولا أبغض الينا من التشبه بكم،

والتخلق بأخلاقكم ، والسير على آثاركم، مخافة أن تصبح مدنيتنا في مستقبل أيامها مدنية وحشية لا عهد فيها ولا ذمام

سنأكل الشيح والقيصوم ان عز الطعام الا من أيديكم ، ونلبس الجلود والفِراء ان أقفرت الأرض الا من مصانعكم ، ونشرب الملح الأجاج ان أبى العذب الزلال ان ينبع الا في أرضكم ، ونعيش في الظلمة الداجية ان أبت الشمس أن تشرق الا من آفاقكم ، وسنخلع عن أرضنا ثوب الخصوبة والجمال ونلبسها ثوب القحط والجدب لنقطع سبيل مطامعكم فيها، ونكدر عليكم صفاء العيش بين ظلالها وأمواهها ، غير شاكين ولا متبرمين ، فلا خير في نعمة يكدرها الذل ، وبعداً لماءٍ لا يشربه شاربه الا ممزوجا بدم

ان في السماء إلهاً ، وان في الأرض عدلا ، وإن العناية الالهية التي تضم الى أجنحتها ضعف الضعيف وبؤس البائس ومظلمة المظلوم أرحم من أن لا تحفل بهذه الدموع التي تذرفها الأمة حزنا على شيخها الشهيد المظلوم

رويدك حتى تنظري عم تنجلي غمامة هذا العارض المتألق

الى سعد باشا

فى منفاه

فى الساعة التى نزلتَ فيها إلى قاع السفينة « نوراليا » لتفارق هذا العالم كله إلى جزائر « سيشيل » صعد خصومك إلى كراسى مناصبهم فرحين متهللين يهنئ بعضهم بعضاً ، ويبسم بعضهم إلى بعض ، ولا أعلم هل تلك الحمرة الخفيفة التى جالت فى وجوههم فى تلك الساعة كانت خالصة كلها للسرور والغبطة ، أم كان يمازجها شئ للخجل والحياء ، ولعلها كانت الثانية ، فانى من لا يعتقد أن الضمير الانسانى إذا جمد ينتهى به جموده إلى الموت

أنت سجين وهم مطلقون ، أنت معذب وهم ناعمون ، أنت مستوحش منفرد فى قفرة جرداء لا أنيس لك فيها ولا سمير إلا بضعة أفراد مثلك مستوحشين منفردين وهم مؤتنسون بالعيش فى قصورهم وبساتينهم وملاعبهم ومسارحهم بين نسائهم وأولادهم وصحبهم وخلانهم ، أنت مكتئب حزين يتقاسم قلبك همّان ، همّ نفسك ، وهمّ قومك ، وهم فرحون متهللون ، يطفرون ويمرحون ،

ويطيرون بأجنحة سرورهم وجبورهم فى كل جو وافق، لايخالط نفوسهم هم واحد

ولكن هل أنت على ذلك شقي ؟ وهل هم على ذلك سعداء ؟

لا ! ! لقد لهم أمنية أن تغيب عنهم فيغيب عنهم اسمك وذكرك، وضوضاؤك وجلبتك، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالنفوس ثائرة ، والقلوب واجدة، والهتاف باسمك يملأ الآفاق والاجواء، والدعاء بثأرك يلاحقهم فى كل مكان يسيرون فيه ، وعيون الحقد والبغضاء تضرب حولهم نطاقاً نارياً لا سبيل لهم إلى التفلّت منه والخروج من دائرته ، فأنت الحر الطليق ، وهم الاسراء المسجونون ، ولكنهم يتجلدون ويصابرون

— أنت تعيش من فضيلتك وشرفك،ومن رضاك عن نفسك واغتباطك باداء واجبك ، ومن راحة ضميرك واستقراره ، وهدوء نفسك وسكونها ، فى أرحب من رقعة الارض وأفسح من ديباجة السماء ، وهم يعيشون من وخزات ضمائرهم ، وقلق نفوسهم ، ووساوس صدورهم ، وخوفهم على تلك اللقيمات الملفوظات التى هى كل ما ظفروا به من حياتهم أن تهب عليها عاصفة من العواصف فتطير بها وتطير بهم معها ، ومن شبحك الهائل المخيف الذى لا يفارق مضاجعهم ، ولا يبرح يقظتهم ومنامهم ،

ولا يزال يتمثل لهم فى طعامهم الذى يطعمون ، وشرابهم الذى يشربون ، وفى جميع ما تمتد اليه عيونهم ، وتتصل به اسماعهم ، فى أضيق من كفة الحابل ، وأضنك من عيش السجين

لا سجن فى الدنيا غير سجن النفس ، ولا حرية فيها غير حريتها ، وليست سعادة المرء بمقدار ما يحيط بجسمه من الفضاء ، بل بمقدار ما يحيط بنفسه منه

فما سجنك الذى تعيش فى جوه الموحش المكتئب وبين جدرانه المتقاربة المتدانية بمانعك من أن تطير بنفسك العالية الخفاقة فى ما تشاء من الآفاق والاجواء ، وأن تتمتع برؤية هيا كل مجدك وعظمتك المقامة لك على ضفاف النيل من طيبةَ الى الاسكندرية ، وأن تسمع دقات القلوب الخافقة بحبك ، وأحاديث النفوس الهاتفة بذكرك

وما فضاؤهم الرحب الفسيح الذى يحيط بهم بمجدٍ عليهم شيئاً إذا حاولوا الحركة والاضطراب فيه ، لانهم يعلمون أنهم يعيشون فى أمة قد وتروها وآسفوها ، وغرسوا الحقد والبغضاء فى صدورها ، فهم على قوتهم وبأسهم ، وعلى ضعفها وتجردها من كل سلاح وعدة ، يخشونها ويخافونها ، ولا يطيقون أن يحتملوا نظراتها النارية التى تلفح وجوههم ، ولا صرخاتها الدموية التى تدوى

فى آذانهم ، فهم دائماً فارون مطاردون كأنهم بعض المجرمين، لا عمل لهم فى حياتهم سوى أن يسائلوا أنفسهم أين يعيشون وكيف يعيشون ؟

انهم لم يريدوا مطاردة جسمك بل نفسك ، ونفسك باقية فى مكانها لم تبرحه ، ولم يعتقلوك من أجلك، بل من أجل القضاء على الروح الوطنية من بعدك ، والروح الوطنية نامية زاهرة تضرب أعراقها فى أعماق القلوب، وتهفو ذوائبها فى آفاق السماء، ولم ينقموا عليك حياتك ولا وجودك ، بل وقوفك فى وجه متعتهم بمناصبهم التى هى كيان حياتهم وقوام أمرهم ، والتى لا سبيل لهم الى العيش الا فى ظلها ، ولا الحياة إلا فى دائرتها ؛ ومناصبهم منغصة مهددة هى هامة اليوم أوغد

فهم لم يفقدوا إلا وجهك ، ولم ينالوا إلا من جسمك ، ولم يحصلوا فى أيديهم من كل ما عملوا إلا على إثم الجريمة وعارها

آه ياسيدى لو تيسر لك أن تراهم لرأيت قوماً معذبين متألمين ، حائرين ذاهلين ، لا يهنأون فى نوم ولا يقظة ، ولا يهدأون فى سكون ولا حركة ، قد ضاقت بهم الحيل ، وتشعبت بهم السبل ، وانتشرت عليهم الاراء والافكار ، لا يعلمون ماذا يأخذون وماذا يتركون، لا عمل لهم فى حياتهم سوى

أن يسائلوا أنفسهم ليلهم ونهارهم ألا يستطيع هؤلاء الناس أن يرضوا منهم بدون عودتك : وعودتك موتهم الاحمر، وشقاؤهم الاكبر

ينثرون الذهب على الناس نثراً ليتألفوهم ويستدنوهم فيلتقطونه وهم يلعنونهم لانه مالهم قد أخذوه منهم ثم نثروه عليهم

يوزعون الرتب والنياشين على الخاملين والمغمورين ليكونوا أعوانهم وأنصارهم بدل الاعوان والانصار، فيمنحونهم من ألسنتهم ووجوههم مالا يمنحونهم من قلوبهم وأفئدتهم، لان الحب لا يشترى بالاسماء والالقاب

يخلعون الوظائف الكبرى والمناصب الخطيرة على صغار الموظفين وأحداثهم ليخلبوهم ويبهروا عقولهم فلا يصنعون لهم شيئاً سوى أن يجاملوهم فى مجالسهم ببعض ما يحبون، فاذا خرجوا من عندهم خرجوا هازئين بهم ساخرين

يبتاعون أقلام فقراء الكتاب وضعفائهم ليكتبوا لهم ما يحط من شأنك ويرفع من شأنهم فيفعلون كارهين متبرمين، لان القلم لا يجد لذة المراح والجولان إلا فى ميدان الصدق والاعتقاد

يصيحون فى الناس بلهجة الخبثاء الماكرين أبشروا أيها الناس فقد جئناكم بالاستقلال الذى هو خير لكم من سعد فيجيبونهم بهدوء وسكون لو كان صحيحا ما تقولون لكان سعد أول من يتمتع به لانه صاحبه

يحلفون لهم بالله جهد ايمانهم انهم لا يريدون بهم إلا خيرا ولا يضمرون لهم إلا ما يحبون فيقولون لهم ولماذا اذن نفيتم سعدا ؟

يحاولون بكل ما يعرفون من الوسائل أن يفصلوا بين قضيتك وقضية مصر فكانما يحاولون الفصل بين الشمس وشعاعها، والنار وحرارتها، والمقدمة ونتيجتها

يصخبون أخيرا ويحتدمون ويقولون إن التشبث بعودة سعد مسئلة شخصية ، فتتجاوب الاصداء من كل ناحية هبوا أن الامر كما تقولون ، وهل تشبثكم بمناصبكم وعضكم عليها بالنواجذ ومخاطرتكم بكل شىء فى سبيلها مسئلة غير شخصية !

× فانت يا مولاى قذى عيونهم ، وغصة حياتهم، وشغل قلوبهم وأفئدتهم ، والحجة القائمة عليهم أحسنوا أم أساءوا ، أعطوا أم منعوا ، نفعوا أم أضروا ×

ولقد تحدثهم نفوسهم أحيانا بالتخلى عن تلك المناصب

الشقية وتوديعها إلى الابد سآمة وضجراء، وضيقاً وحصرا، ولكن يحول بينهم وبين ذلك علمهم أن الاوان قد فات، وأن الامة لاتغفر لهم ذنوبهم، ولا تقيل لهم عثراتهم، وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا فى فضاء الارض ذات الطول والعرض ظل حصاة يلجأون اليه من نقمة الامة وغضبها، فلا يجدون لهم بدا من أن يستمروا قابعين وراء تلك الا كمة التى تحميهم وتذود عنهم، وربما كانوا يبكون وراءها دما

× فمثلهم كمثل الفارّة من بيت أبيها إلى بيت خليلها، يلحقها الندم، وتضيق بها ساحة العيش، فتود لو رجعت الى بيتها الاول، ولكنها لاتستطيع ×

وكأنهم بحماتهم وقد ملوهم وسئموهم، وضجروا بمكانهم، لانهم ما منحوهم هذه المناصب حباً وإيثارا، أو منة وفضلا، بل ليمهدوا لهم السبيل الى ذلك الاتفاق الذى يريدونه، ويقوموا لهم بوظيفة تحويل شعور الامة الى سياستهم، واقتيادها الى حظيرتهم، من طريق الكيد والدهاء، لا من طريق القوة والعنف، وقد عجزوا عن ذلك، فلم يبق لهم سبيل الى البقاء

٨ وكذلك ينتقم الله لك منهم يامولاى انتقاماً تهتز له اقطار

الارض، وتضطرب له أكناف السماء، وكذلك يسجل لهم التاريخ في صفحاته من العار والشنار ما سجل لامثالهم من الخارجين المارقين

مولاى !

لا الشمس الطالعة من مشرقها صفراء كالذهب تنشر الاضواء في الآفاق وتعابث باشعتها اللامعة المتلألئة ذوائب الاشجار وقمم الجبال ورؤوس الهضاب وتبعث الازهار من أكمامها والطيور من أوكارها

ولا البدر السائر في سمائه بعظمته وجلاله بين حاشية من كواكبه ونجومه ، يمسح بليقته الفضية جبين السماء ، ويمزق حجب الظلام عن وجه الغبراء

ولا الربيع المقبل في أثواب زهوره ورياحينه، ومطارف غدرانه وجداوله ، يوشي بساط الارض بأبدع الالوان وأبهاها ، ويملأ الفضاء الرحب بأطيب الروائح وأعبقها

ولا الطيور الصادحة على أفنانها توقع نغماتها على خرير الماء وتترجم في توقيعها عن شجو النفوس وحنينها، وخفقان القلوب وأنينها

ولا أحلام الحياة اللذيذة المنبعثة في النفوس انبعاث الراح في الاجسام ، تحيي مواتها ، وتستثير نشوتها ، وتهز اعطافها،

وتذيقها حلاوة المنى ولذة الامل

ولا الدنيا وجمالها ، ولا الارض وبهجتها ، ولا السماء وزينتها ، ولا البحار وروعتها ، ولا المروج وخضرتها ، ولا الازهار ونضرتها ، بقادرة على أن تنسينا أيامك الغر البواسم التى كانت غرر الدهر وحجوله ، وزينة الدنيا وبهجتها ، ولا بمستطيعة أن تنزع من بين قلوبنا مرارة الحسرة على فراقك ، واللهف الى لقائك ، فمتى يجمع الله بيننا وبينك !

لا أُوحشت دارك من شمسها ولا خلا غابُك من اسده

S. A. August 22, 1937

منتخبات

من شعر المؤلف

وصف القلم

يا يراعى لولا يدٌ لك عندى
عفتُ نظمى فى وصفك الاشعارا
يا يراعَ الأديب لولاك ما أصـ
ـبح حظ الأديب يشكو العِثارا
غير أنى أحنُو عليك وإن لم
تك عوناً فى النائبات وجارا
أنت نِعم المعينُ فى الدهر لولا
أن للدهر همة لا تجارى

*
* *

يتجلى فى النقّس شمس نهار
فى دجى الليل تَبعث الأنوار
جمع الله فيه بين نقيضيـ
ـن فكان الظلام منه نهارا
فهو حيناً نارٌ تلظَّى وحيناً
جنة الخلد تَنثر الأزهارا

وتراه ورقاء (١) تندب شجوا
وتراه رقطاء (٢) تنفث نارا
وتراه مغنياً إن شدا حرّ
ك بين الجوانح الأوتارا
وتراه مصوِّراً يَرسم الحسـ
ـن ويُغرى برسمه الأبصارا
فتخالُ القرطاس صفحة خـد
وتخال المداد فيه عِذارا
هو جسر تمشى القلوب عليه
لتلاقى بين القلوب قرارا
صامت تَسمع العوالم منـه
أىَّ صوت يناهض الأقدارا
فهو كالكهرباء غامضة الكنـ
ـه وتبدو بين الورى آثارا

***

كم أثار اليراع خطباً كميناً
وأمات اليراع خطباً مُثارا

(١) الورقاء الحمامة (٢) الرقطاء الحية الخبيثة

قطراتٌ من بين شقيه سالت
فأسالت من الدما أنهارا
كان غصناً فصار عوداً ولكن
لم يزل بعدُ يَحمل الأثمارا
كان يستمطر السماءَ فخال ال
أمرُ فاستمطر العقولَ الغزارا

***

يسعد الناس باليراع ويَلقى
ربُّه ذلة به وصَغارا
واشقاءَ الأديب هل وتَرَ (١) الده
رَ فلا زال طالباً منه ثارا
أرفيقُ المحراث يحيا سعيداً
ورفيقُ اليراع يَقضى افتقارا
ما جنى ذلك الشقاءَ ولكن
قد أراد القضاءُ أمراً فصارا
ليس للنَّسر من جناح إذا لم
يجد النسرُ فى الفضاء مطارا

(١) وتره أصابه بثأر يقول كأن الدهر موتور لذلك الأديب فهو يطالبه بالثأر

حاسبوه على الذكاء وقالوا
حسبهُ صيتهُ البعيد فخارا
أوهموه أن الذكاء ثراءٌ
فمضى يسحب الذيول اغترارا
يَحسب النقد للقصيدة نقداً
ويَرى البيتَ فى القصيدة داراً
ليس بدْعاً من هائم فى خيال
أن يَرى كل أصفرٍ دينارا
إن بين المداد والحظ عهداً
وذِماماً لا يَلتوى وجوارا
فاللبيب اللبيب من ودع الطر
س وولى من اليراع فرارا

على لسان عامل فقير

زاحفتُ أيامى وزاحفنى
دهراً فلم تنكل ولم أنكل (١)

(١) نكل نكص وجبن

لا عزمها واه ولا عزمتى
تصادُمَ الجنـدل بالجندل
رمت فلم تُبق على مفصل
لكنها طاشت عن المقتل
وليتها أصمت (١) فما أبتغى
من عيشها إن أنا لم اُقتل
لا خير فى الصبر على غمرة
لا يأمل الصابر أن تنجلى
صبرت فى البأساء صبر الذى
قيد الى القتل فلم يحفل
لا فضل فى الصبر لمستسلم
عىّ عن الفعل فلم يفعل

***

عشرون عاماً لم تحل حالتى
ما أشبه الآخر بالأول
أغدو إلى المعمل فى شملة (٢)
خرقاء لم تَـكسُ ولم تشمل

(١) أصما الصيد رماه فقتله (٢) الشملة نوع من الاكسية

كأنها برقع مصرية
لا تحجب الوجه عن المجتلى
تَنِمُّ عن جسمى كما نم عن
نفسى غزيرُ المدمع المرسل
يميل بي الهم، مميل النقا
بين جنوب الريح والشمأل
فمن رآنى ظن بى نشوة
أجل بكأس الحزن لا السلسل
أقضى نهارى مقبلا مدبراً
كأننى الآلة فى المعمل
وصاحب المعمل لا يرتضى
منى بغير الفادح المثقل
فان شكوت النزر[1] من أجره
برّح بى شتما ولم يُجمل
حتى إذا عدت الى منزلى
وجدت سوء العيش فى المنزل
أرى أيامى يشتكين الطوى
إلى يتامى جوَّع نُحَّل

(١) النزر القليل

أبيتُ والأجفان فى سهدها
كانما شُدّتْ الى يذبل (١)
بين صغار سُهَّد فى الدجا
يُذرون دمع الثاكل المرمل
بين ضعيف الخطو لم يعتمد
وشاخص فى المهد لم يُحوِل (٢)
يدعون اماً تتلظى أسى
حذار يوم الحادث المثكل
ووالداً عىّ باسعافهم
فى العيش عىّ الفارس الاعزل

* * *

مازال ريب الدهر ينتابنى
بالمعضل الفادح فالمعضل
حتى رمانى بالتى لم تدع
الابقايا الروح فى هيكل (٣)
فها أنا اليوم طريح الضنى
وليس غيرُ الصبر من معقل

---

(١) جبل معروف (٢) لم يعتمد أى لم يتكل في مشيه على نفسه . والمحول الذى بلغ حولا (٣) يريد بها الحمى

فى لفحة الرمضاء لا أتقى
وهبّة النكباءِ لا أصطلى (١)
هذا هو البؤس فهل من فتى
تمّ له فى البؤس ماتم لى

وقال ينعى على جماعة الفوضويين مذهبهم في قتل الملوك ويشير الى حادثة الفوضوى الذى وضع منذ سنوات قنبلة فى طريق الفونس الثالث عشر ملك اسبانيا وهو عائد من الكنيسة مع عروسه فى يوم حفلة قرانه فأصابت القنبلة خيل المركبة وقتلت بعض الحاشية ونجا الملك وعروسه وقبض على الفوضوى فقتل

أيها الفاتك الاثيم رويداً
كل يوم تكيد للتاج كيداً
لا أرى التاج فى البرية إلا
فلكا دائراً وأخذاً وردّا
يتخطى الرءوس راسا فراسا
ماشياً فى العصور عهداً فعهدا

---

(١) الرمضاء شدة الحر والنكباء الريح الباردة

فمحال أن يهدم المرء صرحا

أعجز الدهر بأسه أن يهدا

عبثاً تقتل الملوك وعذراً

لك فيهم لو كنت تحمل حقدا

آفة العقل أن يَرى الحمد ذماً

ويرى الخطة الدنيئة حمدا

لا يبالي بالموت من عرف المو

ت ومن لا يرى من الموت بدا

غير أن الآجال فينا حدود

كل حى تراه يطلب حدا

أى جفن أجريت منه دموعاً

كان لولاك فى السما كين بعدا

أى روع أسكنته فى فؤاد

كان فى فادح الحوادث جلدا

مابكى الفونس خشية بل غراماً

ودموع الغرام أشرف قصدا

إن قلب الجبان يخفق رعباً

غير قلب المحب يخفق وجدا

كان بين الحياة والموت شبر

بُدّل النحس فى مجاريه سعدا

فرأينا القتيل يعمر قصراً

وغريم القتيل يعمر لحدا

أنت تقضي والله يقضى بعدل

فى البرايا والله أكبر أيدا (١)

جمرة أطفأ القضاء لظاها

فغدا جمرها سلاماً وبردا

إن للمالك الكريم قلوباً

وقفت بينه وبينك سدا

فافتدته فكن خير فداء

لمليك وكان نعم المفدى

فى الوجديات

سقاها وحيا تربها وابل القطر

وإن أصبحت قفراء فى مهمه قفر

طواها البلى طى الشباب رداءه

وليس لما يطوى الجديدان (٢) من نشر

(١) الايد القوة (٢) الجديدان الليل والنهار

مرابض آساد ومأوى أراقم
تجاور فى قيعانها الغيل بالجحر [١]
يكاد يضل النجم فى عرصاتها [٢]
ويزورُّ عن ظلمائها البدر من ذعر
لقد فعلت أيدى السوافى بنؤيها [٣]
وأحجارها ما يفعل الدهر بالحر
وقفت بها فى وحشة الليل وقفة
أثار شجاها كامن الوجد فى صدرى
ذكرت بها العهد القديم الذى مضى
ولم يبق منه غير بالٍ من الذكر
وعيشاً حسبناه من الحسن روضة
كساها الحيا منه أفانين من زهر
فانشأت أُبكى والاسى يتبع الاسى
الى أن رأيت الصخر يبكى الى الصخر
وما حيلة المحزون إلا لواعجٌ
تفيض بها الاحشاء أو عبرة تجرى

(١) الاراقم الحيات والغيل موضع الاسد (٢) العرصات جمع عرصة وهى ساحة الدار (٣) السوافي الرياح والنؤى الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل

وما أنس م الاشياء لا أنس ليلة
جلاها الدجى قمراء فى ساحة القصر
كأن النجومَ فى أديم سمائها
سفائنُ فوضى سابحاتٌ على نهرِ
كأن الثريا فى الدجنّة طرة (١)
مرصعة الاطراف باللؤلؤ النثرِ
كأن سهيلاً حاسدٌ كلما رأى
أخا نعمة يرميه بالنظر الشزْر (٢)
كأن السهى (٣) حق تَعرض باطل
اليـه فألقى دونه مُسبَل الستر
كأن الدجى فحم سرى فى سواده
من الفجر نارٌ فاستحال الى جمر
كأن نسيم الفجر فى الجو خاطرٌ
من الشعر يجرى فى فضاء من الفكر
وفى القصر بين الظل والماء غادة
تميس بلا سكر وتنأى بلا كبر

(١) الطرة الشعر المقدم فى الجبهة (٢) سهيل نجم معروف بشدة الاحمرار والخفقان (٣) السهى نجم ضعيف

تريك عيوناً ناطقاتٍ صوامتاً
فماشئت من خمر وماشئت من سحر
لهوتُ بها حتى قضى الليل نحبه
وأدرجه المقدار فى كفن الفجر

* * *

لعمرك ما راحت بلبي صبابة
ولانازعتنى مهجتى سورةُ[١] الخمر
ولا هاجنى وجد ولا رسم منزل
عفاء ولـكن هكذا سنة الشعر
ومن كان ذا نفس كنفسى قريحة
من الهم لا يُعنى بوصل ولا هجر
كأنى ولم أسالخ[٢] ثلاثين حجة
ولم يجريوماًخاطرالشيب فى شعرى
أخو مائة يمشى الهوينا كأنه
إذا مامشى فى السهل فى جبل وعر
إذاشاب قلب المرء شاب رجاؤه
وشاب هواهوهوفى ضحوةالعمر

(١) سورة الخمر حدتها (٢) سلخ عامه أمضاه

حييت بآمالى فلما كذَبننى
قنعت فلم أحفل بقُل ولا كثر
وأصبحت لا أرجو سوى الجرعة التى
أذوق إذا ما ذقتها راحة القبر
وليست حياة المرء الا أمانياً
إذا هى ضاعت فالحياة على الاثر
جزى الله عنى اليأس خيراً فانه
كفانى ما ألقى من الامل المرّ
وراض جماحى للزمان وحكمه
بما شاء من عدل وماشاء من جور
فما أنا ان ساء الزمان بساخط
ولا أنا إن سرّ الزمان بمغتر

وقال فى شأن غنى من الاغنياء غلبته المدنية الحديثة على بساطته الطبيعية فابتنى قصراً فخماً كان سبباً فى فساد حاله وسوء مصيره

ياصاحب القصر الذى شاده
فاستنفد المذخور من وجده (١)
أقمته كالطود فى هضبة
ترد عادى الدهر عن قصده

(١) الوجد الغنى والسعة

أزَرْته الأبراج في جوها
فانتظمَ الانجمَ في عِقده
أطلعت فيه كوكباً دانياً
أغنى عن الشاسع في بعده
قلصت ظل الليل عنه وما
رعيت حق الله في مده
أنشأت روضاً زاهراً حوله
يعطر الكونَ شذا نده
ورحت بالرتبة في صدره
تُدل دَل المَلك في جنده
كأنما الرتبة كلُّ الذى
ينيله الكوكب من سعده
هب أنه اللوفر (١) في حسنه
أو قصر بوكنهام (٢) في جَدِه
وهبك روكفيلر (٣) تحوى الذى
يضلل الحاسبَ في عده
فالمال إن أجهده ربه
فالفقرُ والعُدم مدى جَهده

(١) اللوفر قصر في باريس (٢) قصر في لندن (٣) أحد الاغنياء في أمريكا

والمـال كالطائر إن هوّمت
حرّاسهُ طار إلى فِنـده (١)

والمجد للمـال وكلُّ الذى
تَراه من مجد فمن مجـده

هذا شهاب ساطع مشرق
والليلة الليـلاء من بَعـده

بنيت للبنك فأغنيتـه
بجـدك المبذول عن جـده

بنيت مالو قدَروا قـدرَه
لقيل هـذا الميت فى لحده

وأدتَ فيه الامل المرتجى
حياً ولم تأسَ على وأده

أغمدت فيـه صارماً طالمـا
تثلم الدهر على حـده

واريتَ فيـه ولداً ليتـه
قضى قرير العين فى مهده

(١) هوم هز رأسه من النعاس والفند الجبل

وليته ماشب فى زُخرفٍ
يبكى يدَ الدهر على رغده
فليس من يأسى على مطلب
ناء كمن يأسى على فقده
غدرت بالبيت الذى بثك اا
ود فلم تبق على وده
هدمته والمجد ظلٌّ له
فما بقاء الظل من بعده
لكنت من كوخك فى نعمة
تذيب قلب الدهر من حقده
وكان ينتابك مسترفداً
من بتَّ محتاجاً الى رفده
فاليوم لا القصر كما ترتجى
منه ولا الكوخ على عهده
واليوم رب القصر يذرى دماً
من جفنه آناً ومن كبده
يدعو اليه الموتَ من بعد ما
نالت يدُ الايام من أيده

واسودّ ذاك الجون من جلده
وابيض ذاك الجون من فوده[1]
هل يعلم الشرقى أن الردى
سر بصدر الدهر لم يبده
وأنه يفجؤنا بالأسى
يوما خروجَ السيف من غمده
وان هذا الدهر في هزله
يغر بالكاذب من وعده
فهزله أنفذ من جده
ورهوه أسرع من وخده[2]
ويح لمصر ولأبنائها
مما يريغ[3] الدهر من كده
نعيش بالهم ونرضى به
عيشاً ونقضى العمر فى نقده
كشارب الكأس يرى عابساً
منه ولا يقوى على رده

(١) الجون وصف للابيض والاسود والفود ناحية الرأس (٢) الرهو السير السهل والوخد السير السريع (٣) يريغ يريد

فان لمحنا بارقاً خاطفاً
لا نسمع القاصف من رعده
نسرع خوض البحر فى جزره
وجزره ينبئ عن مده
والكل ظمآن يرى صادراً
وما قضى الاربة من ورده

وقال فى الحكم

اذا ما سفيه نالنى منه نائل
من الذم لم يحرج بموقفه صدرى
أعود الى نفسى فان كان صادقاً
عتبت على نفسى وأصلحت من أمرى
والا فما ذنبى الي الناس ان طغى
هواها فما ترضى بخير ولا شر

وقال يهنئ الشيخ محمد عبده بعودته من احدى رحلاته فى أوروبا

راح يبارى النجم فى جده
وعاد كالسيف الى غمده
رأى السرى والسهد مهر العلا
فجد وارتاح الى سهده

لا يبصر الخطب جليلا ولا
تلوى به الاهوال عن قصده
مسدد العزم اذا ما مضى
يحار صرف الدهر فى رده
كالسيف يجلوه القراع [1] ولا
يأخذ ضرب الهام من حده
كان لمصر بعد توديعه
صبابة الصادى الى وِرده
واليوم قد عاد لها كل ما
ترجو من النعمة فى عوده
وافتر عنه ثغرها مثلما
يفتر ثغر الروض عن ورده
بدا وقد حفت به هيبة
كأنما عثمان فى برده
ما فيه من عيب سوى أنه
يحسده الناس على مجده
ما حيلة الحساد فى نعمة
أسبغها الله على عبده

(١) القراع الضراب

وقال فى حادثة عربية وقعت بين أسماء بنت أبى بكر الصديق وولدها أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير حينما حاصره الحجاج فى مكة حتى أحرجه ثم عرض عليه التسليم فاستشار أمه فأشارت عليه بالاستقتال فقاتل حتى قتل

ان أسماء في الورى خير أنثى
صنعت فى الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعاً
تحت درع منسوجة من نجيع (١)
قال ياأمُّ قد عييتُ بأمرى
بين أسر مُرٍّ وقتل فظيع
خاننى الصحب والزمان فمالى
صاحبٌ غيرُ سيفى المطبوع
وأرى نجمى الذى لاح قبلا
غاب عنى ولم يعد لطلوع
بذل القوم لى الامان فمالى
غيره ان قبلتُه من شفيع
فأجابت والجفن قفر كأن لم
يكُ من قبلُ موطناً للدموع

(٢) النجيع الدم

واستحالت تلك الدموع بخاراً
صاعداً من فؤادها المصدوع
لا تسلم إلا الحياة وإلا
هيكلا شأنه وشأن الجذوع
إن موتاً فى ساحة الحرب خير
لك من عيش ذلة وخضوع
إن يكن قد أضاعك الناس فاصبر
وتثبت فالله غير مضيع
مت هماماً كما حييت هماماً
واحى فى ذكرك المجيد الرفيع
ليس بين الحياة والموت إلا
كرة فى سواد تلك الجموع
ثم قامت تضمه لوداع
هائل ليس بعده من رجوع
لمست درعه فقالت لعهدى
بك يا ابن الزبير غير جزوع
إن بأس القضاء في الناس بأس
لا يبالى ببأس تلك الدروع

فنضاها عنه وفر إلى المو
ت بدرع من الفخار منيع
وأتى أمَّـه النعىُّ فجادت
بعـد لأىٍ بدمعها الممنوع

وقال فى الشيب

ضحكات الشيب فى الشعر
لم تدع فى العيش من وطر
هُنّ رسـل الموت سانحة
قبلَه والموت فى الأثر
يابياضَ الشيب ما صنعت
يدك العسراء بالطرر
أنت ليـلُ الحادثات وان
كنتَ نورَ الصبح فى النظر
ليت سوداء الشباب مضت
بسواد القلب والبصر
فالصبى كل الحياة فان
مرّ مرت غِبطةُ العُمر

وقال على سبيل الفكاهة فى شأن كلب اسمه « بيل » وفَى لسيده فطوقه طوقا من الذهب وأوصى له بخمسة آلاف دينار

ليهنك يا «بيل» الجلال وعزة
يكاد لها القلب الكسير يطير
ملكت على الزهد الالوف وكلنا
إلى قطرة مما ملكت فقير
اذا كان هذا الطوق كالتاج قيمة
فأنت بألقاب الملوك جدير
وما المال إلا آية الجاه فى الورى
فحيث تراه فالمقام خطير
ولو كان بين الجاه والفضل لُحمة
لزالت عروش جمة وقصور
فيا بيل لا تجزع فربَّ متوج
شبيهك إلا منبر وسرير
وما أنت فى جهل المقادير آية
فمثلك بين الناطقين كثير
لئن فاتك النطق الفصيح كما ترى
فسهمك من نطق الفؤاد وفير
وفيت بعهد للصديق وما وفى
بعهد صديق جِرْول (١) وجرير

(١) جرول لقب الحطيئة الشاعر وجرير شاعر معروف

فعش صامتاً واقنع بحظك واغتبط ← ابى نواس

فما النطق الا آفة وشرور

ضلال يرى الانسان فضلا لنفسه

وساعده فى المكرمات قصير

وما المرء الا صدقه ووفاؤه

وكل كبير بعد ذاك صغير

وماذا يفيد المرء حسنُ بيانه

إذا عىّ بالنطق الفصيح ضمير

مدحتك يابيلُ لانيَ شاعر

وأنت على حسن الجزاء قدير

ولو كنت تدرى ما أقول لقمتَ لى

بما لم يقم للمادحين أمير

قال ابو نواس : مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

فى الوجديات

جرى الدمع حتى ليس فى الجفن مدمع
وقاسيت حتى ليس فى الصبر مطمع
وما أنا من يبكى ولكنه الهوى
يريد من الأسد الخضوع فتخضع
فلله قلبى ما أجلَّ اصطباره
وأثبته والسيف بالسيف يقرع
ولله قلبى ما أقلَّ احتماله
اذا ما نأى عنه الحبيب المودع
اذا لاح لى سيف من الخطب رعتهُ
وان لاح لى سيف من اللحظ أجزع
وأقتاد ليث الغاب والليث مُخْدِرٌ
ويقتادنى الظبى الغرير فأتبع
وليل أضل الفجرُ فيه طريقهُ
فلم يدر لما ضلَّ من اين يطلعُ

سهرتُ به أرعى الكواكب والكرى
عصيٌّ على الأجفان والدمع طيّعُ
أود لو أن الطيفَ مَنَّ بزورةٍ
وكيف يزور الطيف من ليس يهجع
لقد عشت دهراً ناعم البال خالياً
من الهمّ لا أشكو ولا أتوجّعُ
أروح ولى فى معهد الغىّ مربَعٌ
وأغدو ولي فى مسرح اللهو مرتعُ
فما زلت أبغى الحبَّ حتى وجدته
فلما أردت القرب كان التمنع
فلم يبقَ لى عن ذلك الحبِّ مهربٌ
ولم يبق لى فى ذلك القرب مطمع
كأنىَ فى جو الصبابة ريشةٌ
بأيدى السوافى مالها الدهرَ موقعُ
كأنىَ فى بحر الهيام سفينةٌ
أحاط بها موج الردى المتدفّعُ

كأنى فى بيداء دهماء مَجْهَل
تضلُّ رُخاءٌ فى دجاها وزعزع
فلا أنا فيها واجدٌ من يدلنى
ولا نجمها يبدو ولا البرق يلمع
فمهلاً رويداً أيها اللائم الذى
يجرعنى فى لومه ما يجرع
نصحتَ فلم أسمع وقلت فلم أطع
فما نصح صب لا يطيع ويسمع
فياحبَّ هذا القولُ لو كان مجدياً
ويانعم ذاك النصحُ لو كان ينفع
قضى الله ألا رأى فى الحبِّ لامرىء
وذاك قضاء نافذٌ ليس يدفع

*
* *

مررت على الدار التى خف أهلها
وطال بلاها فهي قفراء بلقع
معاهد كانت آهلاتٍ وكان لي
مصيفٌ تقضَّى فى رباها ومربَعُ

فياليت شعرى هل يعودنَّ عيشنا
بعهدها والشملُ بالشمل يجمع
فتَقْضَى لُبانات وتطفى لواعج
وتبرد أكبادٌ وتنضب أدمع

* * *

فما أنس م الأشياء لا أنس ليلةً
تجشمت فيها الهول والهول مفزع
ولا مؤنسٌ ألا ظلام ووحدة
ولا مسعدٌ إلا فؤاد مروع
ولا صاحبٌ إلا المطية حولها
ذئابٌ تَعادى فى الفلاة وأضْبُعُ
ولا عينَ إلا النجم ينظر باهتاً
ويعجب لى ماذا بنفسىَ أصنع
اذا ماتشكت من كلال مطيتي
وقد كلَّمتها ألسنُ السَّوط تسرع
أسير بها سير السحاب كأننى
بأذرُعها عرضَ الفدافدِ أذرَع

الى أن تنورت الخيام ولاح لى
ضياءٌ بدا من جانب الخدر يسطع
فأقدمت نحو الحى والحىُّ هاجعٌ
وخضت سواد القوم والقوم صُرَّعُ
ولا عهد لى من قبل أين خبأوها
ولكن هدانى نشرها المتضوعُ
فبتُّ وباتت يعلم الله لم يكن
سوى أذن تصغي وعين تَمَتَّعُ
نخال دوى الريح في الجو واشياً
بنا وضياء البرق عينا فنفزع
ولا عين الا خوفنا وارتياعنا
ولا ناظر يرنو ولا أذن تسمع
وأعذب وردٍ راق ما كان نيله
عزيزاً وأحلى القرب قرب ممنَّعُ
فكانت برغم الدهر أحسن ليلة
رأيت بعمرى بل هى العمر أجمع

وما راعنا الا هـدير حمامةٍ
على فنن عند الصباح ترجّع
فقمت ولم تعلق بذيلي ريبة
ولا كان ألا مايشاء الترفع
وودعتها والحزن يغلب صبرنا
وأحشاؤنا من حسرة تتقطع
فقالت أهـذا آخر العهد بيننا
وهـل لتلاقينا معاد ومرجع
فقلت ثقي يافوز بالله أنهـا
«سحابة صيف عن قليل تقشع»
وسرتُ وقلبي فى الخيام مخلف
ولى نحو قلبى والخيام تطلّع

* * *

حنانيك رفقاً أيها الدهر واتئد
فحسبى ما ألقى وما أتجرع
ورحماك بي فالسيل قد بلغ الزُبى
ولم يبق فى قوس التصبر منزع

على أنني أصبحت لا متخوفا

بلاءً ولا إن نالني الرزء أجزع

فقد اعتصمتْ بالصبر نفسي وفَوضت

الى الله ما يعطي الزمان ويمنع

پول وِڤرچيني

يابنى القفر سلاما عاطراً

من بنى الدنيا عليكم وثناءْ

وسقى العارضُ من أكواخكم

معهدَ الصدق ومهدَ الاتقياء

كنتمُ خير بنى الدنيا ومَن

سعدوا فيها وماتوا سعداءْ

عشتم من فقركم فى غبطة

ومن القِلة فى عيش رخاءْ

لا خصامٌ لا مراءٌ بينكم

لا خداع لا نفاق لا رياءْ

خلقٌ بَرٌّ وقلب طاهر

مثل كأس الخمر معنى وصفاء

ووفاءٌ ثبت الحبُّ به
وثبات الحب فى الناس الوفاءْ
أصبحتْ قصتكم معتبراً
فى البرايا وعزاء البؤساءْ
يجتلى الناظر فيها حكمة
لم يسطرها يراع الحكماءْ
حكم لم تقرءوا فى كتبها
غير أن طالعتمو اصحف الفضاءْ
وكتابُ الكون فيه صحفٌ
يقرأ الحكمةَ فيها العقلاءْ

***

ان عيش المرء فى وحدته
خير عيش كافل خير هناءْ
فالورى شرٌّ وهمٌّ دائمٌ
وشقاء لا يدانيه شقاءْ

وفقير لغني حاسد
وغني يستذل الفقراء
وقويٌّ لضعيف ظالمٌ
وضعيف من قوي في عناء
في فضاء الأرض منأى عنهم
ونجاة منهمُ أي نجاء
ان عيش المرء فيهم ذلة
وحياة الذل والموت سواء

*
* *

ليت (ڤرچيني) أطاعت (پولساً)
وأنالته مناه في البقاء
ورثت للأدمع اللاتي جرت
من عيون مادرت كيف البكاء
لم يكن من رأيها فرقته
ساعةً لكنه رأي القضاء
فارقته لم تكن عالمة
أن يوم الملتقى يوم اللقاء

***

ما « لڤرچينى » وباريس اما
كان فى القفر عن الدنيا غناء
ان هذا المال كاس مزجت
قطرةُ الخمرة فيه بدماء
لاينال المرء منه جرعة
لم يكن فى طيها داء عياء
عرضوا المجد عليها باهراً
يدهش الألباب حسناً ورُواء
وأروها زخرف الدنيا وما
راق فيها من نعيم وثراء
فأبته وأبى الحب لها
نقض ما أبرمه عهد الاخاء
ودعاها الشوق للقفر وما
ضمّ من خير اليه وهناء
فغدت أهواؤها طائرة
بجناح الشوق يزجيها الرجاء

يأمل الانسان مايأمله

وقضاء الله فى الكون وراء

* * *

مالهذا الجو أمسى قاتما

ينذر الناس بويل وبلاء

مالهذا البحر أضحى مائجاً

كبناء شامخ فوق بناء

وكأن الفلك فى أمواجه

ريشة تحملها كف الهواء

ولقرچينى يد مبسوطة

بدعاء حين لايجدى دعاء

* * *

لهفى والماء يطفو فوقه

هيكل الحسن وتمثال الضياء

زهرة فى الروض كانت غضة

تملأ الدنيا جمالا وبهاء

من يراها لايراها خلقت
مثل خلق الناس من طين وماء
ظنت البحر سماء فهوت
لتباري فيه أملاك السماء
هكذا الدنيا وهذا منتهى
كل حي مالحي من بقاء

تمت

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تمت

DATE DUE

U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00512468